وزارة الثقافة

الأعمال القصصية

للكاتب والأديب الفلسطيني

عثمان خالد أبو جحجوح

رقمنة
وزارة الثقافة
Ministry of Culture

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

■ اسم الكتاب: الأعمال القصصية
للكاتب والأديب الفلسطيني عثمان خالد أبو ججوح

■ منشورات: وزارة الثقافة الفلسطينية

■ الطبعة الأولى: وزارة الثـقافة الفلسـطينية 2023م

■ تصميم الغلاف: غاوي خليل

■ مونتاج فني: غاوي خليل

جميع الحقوق محفوظة.
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved
No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, withoutprior permission of the publisher.

المجموعة القصصية

(الأولى)

ويحـــكي البـــحر

حـــكاية عـــشق

1995م

إهداء

إلى أرواح الشهداء الثلاثة
والــدي
ورفيقيه: إسماعيل غنيم قنن
ونظمي زقوت
الذين حنوا بدمائهم زلف ورمل شاطئ بحر خان يونس
في عرس 1956 – تل ريدان

تقديم

د. عدنان حسين قاسم

اطلعت على دراسة ممتعة ومتعلقة بالدكتور نبيل خالد أبو علي قاربت هذه المجموعة القصصية"ويحكي البحر حكاية عشق" وقد أثارت بهذه الدراسة نهما إلى قراءتها. وما إن اتممتها حتى الفيت نفسي مقبلا على مقاربتها من جديد، مقاربة ــ هأنذا ــ أقدم بها بين يدي مجموعة:

لكل شخصية مبدعة ما يميزها من السمات الجمالية الفارقة التي تتسم بها دون غيرها. وليس ضروريًّا أن تكون تلك السمات كسراً للقواعد السائدة أو خروجاً عنها، بل قد يستثمر أديب ظاهرة جمالية مطروحة بين أيدي الأدباء من القديم؛ ويبدع في استعمالها فإذا تكررت عنده على نحو لافت للنظر فإنها تصبح سمة أسلوبية في مبدعاته. وجهدت، في هذا التقديم، أن أكشف عن أبرز السمات المميزة لتكنيكات الإبداع عند القاص عثمان خالد أبو جحجوح، وعبر قراءات متأنية وعديدة برزت لديّ بعض السمات التي تستأهل مني أن أسجلها، من هذه السمات:

حاول القاص عثمان خالد،عن وعي وغير وعي منه، أن يختزل المسافة الفاصلة بين القصة القصيرة والقصيدة فيما يتصل بالتصوير الفني. وتجدر الإشارة إلى أن التوجه إلى إزالة الحواجز بين الأجناس الأدبية الذي دعا إليه عزرا باوند، وسمي فيما بعد، بالمشروع الكتابي قد ارتبط بفن الهندسة المعمارية الأمريكية.

وقد اكتشفت أن بعض قصص هذه المجموعة تقف في المسافة

الفاصلة بين القصة القصيرة والقصيدة.
ففي قصة"الحوت" يقول القاص: (عوض الذي ما زال يسكن صدورنا كجزيرة تسكن عرض البحر وتفر من ضلوعنا خلجة غاضبة ترتعش بالرفض وحيوية كريحة شتوية تبخرت من عظامنا) وفي قصة "آخر حقائق غرق البحّار سعيد" يقول: (كان صبي يتشقلب بين أنياب موجة ــ فيرتفع باللنش وكأنه حبة من السمسم على رأس جبل) وفي قصة "هجرة النورس الخريفية" يقول:
(فاحتضن الرمل المفروش بالحناء جسده الصريع والمغسول بماء البحر)، وفي قصة "ويحكي البحر حكاية عشق" أول ما يدهشنا هو العنوان الذي يضع الروح الشعرية أمام عيوننا.
إذا كان التصوير من مميزات الشعر الرئيسية فإن قاصنا عني به عناية فائقة؛ جعل الحدود الفاصلة بين القصة القصيرة والقصيدة تميع، فتداخلت الخصائص وتحققت عملية إلغاء الحدود الفاصلة بين الأجناس الأدبية. ويبدو ذلك جليًّا إذا وضعنا في اعتبارنا أن القاص استعان بتكنيكات السينما والمسرح. فهذه المناظر المتراصّة التي يجمع بينها خيط البحر تشكل واجهة ذلك المنظر الذي يتحقق في السينما، مثل قوله في قصة ويحكي البحر حكاية عشق: (ينزل منها الصيادون يحملون معها الكهارب، الأشرعة، جاءوا من شطآن شتى، يتجهون نحوه. تتوسطه دبكة الصيادين، يدلعن الأرغون، يمتد الظل...) إنها صور مكونة من مناظر عدة تتسم بالحركة التي تعد من أخص خصائص السينما ويبدو تأثره بتكنيكات السينما في قصة "البحر الممغنط" على نحو اكثر وضوحا، فهو يستهل قصته بالطريقة ذاتها التي يبدأ بها السينمائيون أعمالهم؛ يقول:

(كان الشاطئ اشبه بخلية نحل، فريق يصفى الحبال واخر يحمل فروش السمك ويعد المراسي، وهناك من ينقل الماء والوقود ويوزع المجاديف على المراكب بعد تقميرة عجنت خلالها الانواء البحر وأعادته بكرا بمائه وسمائه وسمكه، إلا فريق الغزالين الذي تحلق حوله البحرية يشجعونه، فراحت أصابعهم تتلاعب بحركة دقيقة... الخ).

ومنها كذلك قصته "الفنار" التي يقول فيها: (أنهى جميل دورته اليومية حول الكوخ، نظر ناحية البحر، جمع بعض الأعشاب المتناثرة، أشعل ناراً، ركّب براد الشاي الصغير عليها، غرز ركبتيه بالرمل الناعم وجلس أخرج سيجارة (الهيشة) من علبتها المعدنية الصدئة وزرعها في فمه دونما إشعال منتظرا غليان الشاي بفارغ الصبر...الخ) مناظر متتابعة كتلك المناظر التي يعدها المخرج السينمائي من حيث الحدود والحركات.

واستعار القاص من المسرح أعظم عناصره وهو الحوار؛ لأن الحوار يميز بين الفن المسرحي والفن الروائي والقصصي. ولكن الحوار كان عنده خاصية ثانوية. وظيفتها تنمية الحدث وتطويره لأن التصوير الذي علا حظه على نحو ملحوظ في هذه المجموعة القصصية همّش إلى حد ما تكنيكات السرد القصصي، وأبطأ نمو الحديث اليومي لينتقل الأجواء الاجتماعية، مثاله "الفنار":

- هذا الكوخ تبعك.
- نعم تبعي.
- هادا بعد شوية مش لازم يكون هون...
- أنت فاهم، أنت بتسمع.

ومهما يكن الخلاف حول استخدام العامية فإن ثمة مبررًا عند فريق

من النقاد الاجتماعيين من أمثال سلامة مرسي وغيره في مصر على سبيل المثال؛ مع أن لهم أغراضاً أخرى مغايرة: لكن اقتصار القصص على بعض لقطات الحوار وحصره في جمل معدودة يجعله صائغا، وإن كنت أرى تحويله إلى لغة فصيحة يزيده ثراء، ويبقى هذا رأياً شخصياً.

وقد عمد القاص إلى الحوار العامي في كل قصصه القصيرة حتى شكل سمة أسلوبية عنده.

وإذا كنت قد تحفظت منذ كتاباتي الأولى على اللهجات العامية واستعمالها في النصوص الروائية والمسرحية فأتي أسوغ ــ كلية ــ أن يوظف القاص الأهازيج البحرية الشعبية في إضفاء طعم خاص على بيئة البحر في هذه المجموعة القصصية، وهوما يعيق هذه السمة الأسلوبية. ومن أمثلة ذلك "البحر الممغنط"

موج البحر مش عالي اليوم يوم الغزّالين
فيه السمك بيلالي اليوم يوم الغزّالين
يا عيونها عيون السردين اليوم يوم الغزّالة

لكن هذه الأهازيج الشعبية تحمل في طياتها دلالات غنية تبث إشارات فيها دعوة إلى التصميم على المقاومة والاعتزاز بالذات وامكاناتها الجوهرية على الرغم من ظاهرها الذي يوحي بالضعف؛ مثل:

هيلا ليص يا الله يا الله
هيلا ليص استنى شوية
هيلا ليص عد بحنية
هيلا ليص احنا البحرية
هيلا ليص ما بترمينا
هيلا ليص ازعم قوه

ولعله يحاول أن يخلق بهذه الأهازيج البحرية جوّا يحاكي به تلك الأجواء التي كانت ماثلة في الواقع الخارجي.
ونقل هذه الأهازيج الشعبية المرتبطة بحياة البحارين وعنائهم اليومي يدل على أن القاص قد عاش معهم بحرية شعورية عميقة. وليس سهلاً على الكاتب أن يصور حياة البحارين على هذا النحو التفصيلي الدقيق دون أن يكون قد عاش معهم واطلع على أحوالهم. وهو أمر على درجة من الأهمية بالنسبة للأديب الروائي أو المسرحي حتى إن أحد الأدباء الفرنسيين استأجر أسرة فقيرة يعيش معها ليكتب عنها في نهاية المطاف على نحو أكثر إحكاما.
وقد لعبت درايته بأحوال البحارين دوراً في استثماره للأمثال الشعبية الفلسطينية؛ مثل "من قصة هجرة النورس الخريفية" : (من رضى بقليله عاش) حتى وإن توحدت الفصحى والعامية في هذا المثل رسماً واختلفت نطقاً. كما استثمر الموال الشعبي كما جاء في قصته "ويحكي البحر حكاية عشق":

يا ظريف الطول وقف تقلك مهم لفيت الغربة احسن لك

ويبدو أن ثمة إلحاحاً داخليا عند القاص يشير إلى تأكيد الشخصية الفلسطينية من خلال أمثالها ومواويلها التي تتفرد بها والتي بها تتحد ملامحها الأصلية.
ومن السمات الأسلوبية البارزة عند القاص استعماله الجمل القصيرة المتلاحقة ذات الإيقاع السريع، التي تفتقد أدوات الربط، وهي أشبه ما تكون بزخات الرصاص؛ مثل "البحر سنة إداري": (ثارت الأم، الأطفال، الأب، ماجت الدار، غاب الجميع عن الوعي، العيون تلهبها الشطة، لم يدري كم مكث في المستشفى، خرج منه، حمل كيسه، شبكته، اتجه غرباً، اشبه ببحيرة كان البحر...). وفي موضع

آخر من القصة ذاتها يقول: (التفاتاته مسحت المكان، أغمض عينيه، بسمل، تحول المكان الى ظلمة، لفته، زرعها، نظر إلى السماء، رأى الشهب تهوي، تحرّك أعلنت الشمس أنها لم تغب بعد، استدرك، الوقت أوشك على الممنوع...)

ويدرك قارئ هذه القصة أن هذا النمط الأسلوبي هو السائد منذ بداية القصة حتى نهايتها. ويبدو أن حرارة الانفعال واشتعال عاطفة قد أنتجت هذا النمط الإبداعي. وقد ولدت هذه السمة الأسلوبية نموذجاً تصويرياً يمكننا أن نطلق عليه الصورة القلادة، وهي عبارة عن مجموعة من الصور الجزئية المتلاحقة التي لا تعدو كل صورة فيها أن تكون خرزة في قلادة تضم هذه الصور جميعاً لتشكل كلاً. مثالها من قصة "ويحكي البحر حكاية عشق": (يلد البحر لنشا جميلا عملاقا ينبلج القمر، يجف العرق، تعلو اللنش كوكبا، يستكين البحر على شفة الشاطئ، تتصاعد الزغاريد،....). وكلها صور استعارية مكتنزة بالأحاسيس الفياضة التي تنم على شخصية مبدعها الخصبة.

وتجدر الإشارة إلى أن نهايات القصص من الأمور اللافتة للنظر لأن القاص عمد إلى أن تكون هذه النهايات مفتوحة، وكأنه يدعو المتلقي إلى أن يسد ما يسميه النقاد المحدّثون بالفجوة، وأن يتخلى المتلقي عن سلبيته فلا يكون مستهلكاً بل ثمة دعوة يوجهها إليه القاص بأن يكون منتجاً فيكمل ما بين السطور بما يتفق ثقافته وتجاربه الشعورية. ويبدو ذلك جلياً في مثل قصة "البحر سنة إداري" حين ختمها بقوله: (شاهد الشط، ابتسم، أنفرش ضوء، محمودا عريسا، وجه أم محمود يعود له صفاءه يتبختر محمود مع عروسته، تبستم السلاحف الصغيرة.) ففيها إشارة إلى أمل كامل

في القلب، يرى المستقبل مشرقاً رغم كل ما يعانيه أبطال القصة؛ ولذا فإن نثريات الطبيعة تشخص وتستخدم رموزاً لمشاعر داخلية. ومن الأمور التي يسهل ملاحظتها دقة الحدقة المصورة لحركة الشخصيات وصفاتها الذاتية في مثل قوله في قصته "أبو سمرة": (وجهه الأسمر بجسمه البدين ورقبته الغليظة وحركة يده المستمرة حتى بدأ العرق يتصبب منه ليزيد من تبلل ثوبه المغموس بماء البحر وساقيه العاريتين. وبحركة لا إرادية لفتت نظر الصيادين وتجار السمك، مدّ ابو سمره يديه إلى الامام واضعا رأسه بينهما، مقوسا رأسه قليلا... الخ) وهذه سمة عني بها الأدباء الواقعيون على توجهاتهم.

وبعـــــــــــــــــد، بقى أن نذهب إلى أن هذه المجموعة تمثل أدب مرحلة زمنية ارتبطت بأحداث عظيمة جسدتها الانتفاضة التي اطلع بها الشعب الفلسطيني، الذي هز الدنيا، فأدخل لفظة "الانتفاضة" في قاموسها السياسي والعسكري. وما يحمد لهذا القاص أنه تعامل مع هذه الأحداث تعاملاً ذكياً فلم يقحمها على نحو فجّ وساذج، بل سلك معها سلوكاً يمكننا ان نحللها بنيوياً فنرى أنه كان يدفن غرضه بسلاسة في متن النص، أي أن النص يسير على نحو أفقي، وفجأة يكسر هذا الانسياب بحدث ينحرف به عن المسار الطبيعي، أي أن الحياة تسير بهدوء وإمتاع حتى يأتي من المحتل ما يعكر صفوة ذلك الهدوء. ومن يقرأ هذا النتاج القصصي مستقبلاً سوف يدرك بسهولة إلى أي حد كان العدو الصهيوني مريراً دون أن يبدو بالنص تكلف أو إدخال قسري. ويتجلى هذا التوظيف الرائع بمثل قوله بعد أن صور الحياة جميلة "البحر الممغنط" (كان اسماعيل قد خرج من المعتقل قبل اسبوعين. ذاق خلالها والديه الأمرّين

طيلة فترة اعتقاله..) وكأنه يومئ أن الاعتقال كان أمراً طبيعياً تأخذ كل أسرة نصيبها منه على نحو منتظم. ولكنه يضيق أحيانًا من تلك الأمور التي لا يستطيع ان يتحملها، فيجعل أحدى شخصياته تعبر عنها بانفعال ودهشة في مثل قوله على لسان الشخصيات: (ما شأن البحر والتصاريح الممغنطة؟!.. ألا يكفينا تصاريح؟! هذا تصريح أحمر للفلوكة؛ وتصريح أصفر للشط وآخر لركوب البحر.. ناهيك عن الهوية، فلماذا التصاريح الممغنطة؟!.. حتى البحر أصبح ممغنطا) وقد لعبت علامات الترقيم دوراً بارزاً في لفت الانتباه إلى المعاناة الغير مبررة، وكأنه يشير من طرف خفي إلى أن العدو الصهيوني يخطط إلى ايقاف دورة الحياة عند الفلسطينيين، ويحولهم بالتالي إلى جزء أساسي من الكيان الصهيوني حين يتحولون إلى عمال يسخرون لبناء ذلك الكيان الدخيل وثمة ملاحظة ينبغي لي كناقد أن أشير إليها وهي أن القاص عثمان خالد استخدم تكنيكات واحدة لم تتغير في مجموعته القصصية، وهو ما يجعلنا نستحضر الشاعر العراقي أحمد مطر الذي تفوق في إبداعه الشعري عبر مجموعاته الخمس"لافتات"، ولكن النقاد أخذوا عليه لتقاناته الشعرية التي لم تختلف من مجموعة لأخرى ويحدونا أمل كبير أن تتطور تكنيكات البناء والسرد القصصي عند أديبنا الفلسطيني في مجموعاته القصصية المقبلة؛ مع اقرارنا بعطائه المتميز بإذن الله.

راجع: البحر والصياد ـ من حصاد الأدبيات المحلية، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد الثاني، الأول 1994، ص8

أبو سمر
إهداء
إلى روح الشهيد الريس
إبراهيم أحمد العامودي
"أبو خليل"

أبو سمرة

هذا الصباح خرجت عربة الكارو تحمل فروش السمك، وأبو سمرة يركض من ورائها، ككتلة تتدحرج بابتسامة المعهودة، متجهاً نحو التلة المجاورة لما يسمى بميناء الصيادين التي لا يحلو له بيع سمكه إلا فوقها.

وما إن حطت أشعة الشمس أوائل الصيف، وهذا موعد موسم الصيد البكر على وجهه الأسمر بجسمه البدين ورقبته الغليظة وحركة يديه المستمرة، حتى بدأ العرق يتصبب منه ليزيد من تبلل ثوبه المغموس بماء البحر وساقيه العاريتين، وبحركة لا إرادية لفتت نظر الصيادين وتجار السمك مد أبو سمرة يديه إلى الأمام واضعاً رأسه بينهما، مقوساً ظهره قليلاً، وبصوته الأجش:"تعالوا جاي... الحقوا السمك الطازة... خيط الصبح، اللى ما يشترى يتفرج... الحقوا سكاد"ومنذ تلك اللحظة والجميع ينادونه سكاد، إلا أن ابنه الذى اعتاد مقابلة والده عند التلة، حيث برج المراقبة

المزروع عليها، لم يظهر هذا الصباح كعادته، وكالمجنون تفحص التلة، لف حول العربة، اخترق بعينيه فروش السمك، فتشها سمكة سمكة، نظر إلى البرج، كان لونه أسود، لكنات غريبة تنعق من فوقه، ثقب الأرض، مسح الشاطئ، الشارع، نادته الأصوات،"افتح الباب... بعد الصلاة عالنبي يا سكاد، نظر إلى البرج، انتصب، حلَّق بعيداً، حام في الفى الفضاء تملأ الأفق، ابتسم، بدأت يداه تلوحان من جديد، "صلينا وبدينا، ابن الحلال يفتح الباب"

ما زالت الابتسامة ترافقه، حينما رطم باب الدار بالحائط، بعد عناء ليلة صيد، وهذه عادته عندما يدخل الدار، في كل مرة تعاتبه زوجته، "حرام عليك.. تصمط هالباب في الحيط" وقبل أن يرد عليها التحية بادرها: "أكيد مبسوطة، أكيد أرسلوا له جواب الوظيفة،... أنا لا أريده صياداً، يرث مثلى شقاء الأجداد، أريده معلماً قد الدنيا.. لقد حصل على المرتبة الأولى، معلماً... إنه ولد يعجبك، مش أقل من أبيه سكاد، ومن أول مُرتب، سيكون لك طقم الأسنان" واصل بدون انقطاع:

_هل ارتدى ملابس الوظيفة؟

_ هل مشّط شعره؟... حلق ذقنه؟.

_ هل أخبرتيه عن نصف المرآة؟ إنها موجودة على رف المطبخ.

_ هل اشتريتي له قنينة عطر؟

_ هل تعطّر؟

_ هل زغردتي له عندما خرج من باب الدار؟.

ومن وسط مطر الأسئلة والاستفسارات هذه كان أبو سمرة يخلع ملابسه، وحينما لم يسمع أي إجابة، وتركها تعصر ملحها على جسمه الأسمر، رفع رأسه نظر إلى زوجته، غادره الفرح تشرنقت الدمعة في عينه، صرخ:

_ أأخذوه؟! منذ متى؟!

وبإعياء العجوز المهيض جاءه الرد: الليلة الفائتة، في منتصف الليل، لم ينتظروا حتى أناوله قميصه.
ركن أبو سمرة إلى قاربه الصغير بعد أن ازاحه عن ضرب الموج ناظراً للبحر مرة وأخرى للشمس، ومرات للبرج الأسود القابع بين التلة والبحر، ليرى صورة ولده ملوحاً من بعيد:

_ها أنا قادم.
_ ها أنا أمام التلاميذ..
_ها أنا قد حققت طلب أمي في طقم أسنانها.
- هأنذا على التلة، ذراعك اليمنى يا سكاد.

لكن ألم ذراعه التي كادت ضربتها أن تخرق القارب ايقظته صارخاً: ولدى.. لتشده التلة، تتمسمر عيناه على البرج.

الحـــوت

إهداء

إلى الريس/ حسن أيوب

"أبو نزار"

الحـوت

إصرار الأمواج على محو خطواته زاده اصراراً على ضغط قدميه في الرمل المبتل، يغرزها وينظر للوراء ليرى خطواته، إن كانت باقية أم أن أمواج البحر قد إزالتها.

استمر في سيره مشعلاً سيجارته، ناظراً للأفق البعيد، تصلبت عيناه في زرقة البحر عاودته الأيام والليالي المضنية، هذا البحر الذى تلمح بملحه وتغذى من سمكه، البحر الذى يعرف أجداده دائماً يجعله في حالة من العشق الأبدي وهذا الرمل المفروش المائل إلى صفرة الذهب مع شروق الشمس وغروبها، المرصع بالزلف والأصداف يثير فيه الإحساس بالعودة إلى ليالي البحر. شدته خواطر الماضي...عوض... المستقبل... الحقيقة، عوض الذى ما زال يسكن صدورنا كجزيرة تسكن عرض البحر.

أثر الرشم على الشاطئ قززه جعل عينه لا تفارقان الأمواج وزرقة البحر، وصورة عوض.. آه لو كنت معي لتحدثنا الآن كثيراً ناقشنا أخبار الساعة المتغيرة كما الريح، وأنت الخبير في معرفة تغيره.
البحر اليوم يا عوض أكثر وحشية من بحر تلك الليلة اللعينة التي فقدناك فيها إلى الأبد. هأنذا وحيد على الشط، لا تسلني عن الصيادين، اليوم تغير الوضع، صاروا يفكرون بطريقة تختلف عن السابق، أتدري لماذا؟! لأن قوت اليوم أطفالهم أصبح عسيراً، هذه الأيام، بالأمس يا عوض كنا نتشاءم، من وجود قروش البحر أمامنا في أثناء نزولنا البحر، كنا نتفنن في صيدها، نفرح، نغزل لها الشبك المناسب، أما اليوم فتنخلع قلوبنا يا عوض رعباً، ونحن نرى الحيتان القاتلة تفغر أفواها لتبتلع القروش وأطنان السمك معاً، تبتلع رزقنا، قوت أطفالنا، تمتصنا لكننا لم نزل على الشاطئ، اكتشفنا طرقاً جديدة لمقاومتها وهل تذكر وقت التجفير حينما نصبح عمالاً في سوق العمل نقف على المحطات النخاسة، نعرض عضلاتنا التي صلدتها الشمس، نحن البحرية نحمل معنا، نعجنه، نخلطه بالإسمنت، ينتصب أمامنا كحمار حرون، يأبى أن يتلوث في البر، وتفر من ضلوعنا خلجة غاضبة ترتعش بالرفض والآباء، فنذوب حنينا إليه، خاصة عندما يتطلب ظرف العمل وصعوبة المواصلات أن نبيت هناك، ولا تسلني عن المبيت فأنت الضليع في اكتشاف السراديب المبتلة، ندفن أنفسنا ليلة أو بضع ليال، نصير فيها الأحياء والأموات، أما أصحاب المراكب فيعتبرون وقت التجفير عطلة، رحلات ونزهات على شطآننا تأبى ممارسة قذارتها، أما نحن فالسقالات وحوادث السير المفجعة والبطاطس المقلي بماء الدلف من أمامنا، ووراءنا البحر، ينتظرنا كامرأة طال غياب زوجها عنها

نعود إليه، ما أجمل البحر، بحرنا يا عوض أعذب لياليه، لولا تلك الليلة التي ستظل شوكة في حلوقنا، تلك الليلة أخرجناك من البحر كنت تطفو فوق كفارس يعتلى صهوة جواده وكانت الأسماك كثيرة متعددة تتعلبط من حولك كما لو كانت في عرس، مشهد ما زال محفوراً في ذاكرتنا تلك الليلة يا عوض اكتشفنا أن صوتاً غاضباً ينقصنا، وحيوية كريح شتوية تبخرت من عظامنا وأرتسم سؤال كبير في عيون البحرية، لماذا تسرعت يا عوض؟!

التجفير: فترة لا يكون فيها الصيد.

حقاً أنت أكبرنا وأنت نزعت قشرة الركود، والاستسلام من خطواتنا... أكنت تريد ضرب المثل؟! أم أنك كما قال صابر ظللت تتجرع حتى أفجرت، وكان إنفجارك كارثة عليك وعلينا، رأس طفل حديث الولادة يناطح جبلاً، كم هو رائع التحدي، والأروع يا عوض أن نعرف كيف ومتى نتحدى، فموتك أو قل انتحارك كان درساً مؤلماً لنا، كان عبرة.

لا تسألني عن الصيادين مرة أخرى فهم الآن على وشك تشكيل نقابتهم، الغد أصبح أكثر أملاً، واللون الأزرق يا عوض يفرض نفسه على كل الألوان.

التفت إلى اليمين، ماء البحر يبلل ثيابه، تضاءلت المسافة والقارب الذى طال شوقه إليه يشق ثوب الأفق، يعلن عن نفسه من بعيد، نقطة صغيرة تراقص اللون الأزرق.

هجرة النورس الخريفية
إهداء
إلى روح الشهيد الريس
محمد إبراهيم ذيب البردويل
"أبو على"

هجرة النورس الخريفية

عاوده حنين عارم وشوق طاغ، ليعود إلى البحر، ويجلس في المكان نفسه، فتجره الجراحات لزمن اللحظة وكأنها ذاتها، فنسمات الهواء الخريفية ما زالت تَلِدُ رفوف النورس حلزونية الشكل، وترسلها صوب الجنوب، وما زال موج البحر بزرقته المحناة باللون الأبيض يلاعب زلف الشاطئ لعبة "الغميضة" وقرص الشمس بحمرته المائلة للاصفرار، لا يخربش نقاءه إلا غيمات تمر من حين لأخر، حملت معها طيف والده، فتمتم يقرأ الفاتحة ويترحم عليه، تداخلت الألوان في الأفق المعانق لصفحة الماء، فدكت رأسه كأنها صخرة صماء، كتلك الصخرة التي علق بها يومئذ شرك الصنار، يومها توحدت زرقة السماء بزرقة البحر لتستقبل أجنحة النورس التي تشارك الصيادين صيدهم في هذه الأيام من كل عام، بمناظرها

الساحرة وهى تغطس في الماء وتخرج وفى مناقيرها السمك، فوجود النوارس على صفحة الماء فأل خير لأنه يدل على وجود السمك في تلك المنطقة.“ما ألعنك من شرك أهذا وقت التطبيع؟ ”لقد تأخرنا“قالها سعيد مخاطباً الشرك، وملتفتاً لوالده يطلب منه سكيناً ليقطعه، فرد أبوه معنفا:

أتدري كم ثمن شلة خيطان النيلون ودزينة الصنانير؟!

التطبيع : علوق شباك الصيد أو شراكة بالصخر

-إذاً دعني أغطس إليه.

- يا لك من صياد قليل الخبرة.

- ظل سعيد الذى لم يتعد العشرين صامتاً في حين تابع أبوه قائلاً: ستكون بديلاً عن السمك، سيمزق الصنار جسدك، ويجعلك طعماً له.

- سأبتعد عنه.والصخرة يا شاطر؟

- احرص ألاّ...

- عند الحرص ينفذ الهواء من صدرك.

أمسك أبوه أول الشرك، فأخذت يداه ترتجفان حرصاً على الشرك، وخوفاً من انتهاء الوقت، فالصيد بمواعيد، لم الصيادون من قبل، ومن يتأخر عن موعد الخروج المحدد لا يعلم ما يلحق به من عذاب إلا الله حيث كان الصيادون من حولهم قد غادروا البحر.

”يا لله... يا الله... الأولى طلعت... وراها الثانية“.

وبخبرة الدهر وصبره، ومناغاة البحر، أخرج أبوه شرك الصنار من تطبيعه سالماً، وما أن انتهى من ذلك حتى أخبره قرص الشمس

المائل للغروب، أن موعد الخروج للبر قد مر عليه ساعة.
- كم عدد السمكات يا أبى؟ سأل سعيد والده وهو يصارع المجداف.
- "من رضى بقليله عاش" رد عليه أبوه.
كان الشاطئ يقترب من الفلوكة المتأرجحة ما بين الموج وبين ارتعاشاته، وكان أبوه قد فقد السيطرة على دفتها، فقذفته الموجة الأخيرة إلى رمل الشاطئ الذى التمس لهم العذر، لكن الأوامر جاءت سريعة ومتلاحقة وسط زخات من الشتائم واللكمات وركلات البساطير، حتى الفلوكة لم تسلم فكادت ألواحها تخرج من صفحتها.
أمسك سعيد قدم أحدهم، ولكن الركلة كانت شديدة، فحاول أبوه بلحيته التي شيبتها ملوحة وأنواء البحر أن يوضح الأمر:
بس... هوه... الشرك... اسمع... الصخرة... لكن الأمر كان صعب التوضيح، فالفرق كبير من يأكل السمك وبين من يصيده.
بس... اسكت... اسمع... ممنوع دخول البحر شهراً كاملاً.
قال ذلك مسئول حراسة البحر وهو يقف بميوعة وسط حراسه المدججين بصنوف العذاب يلوك القرار ببرود شديد أغاظ البحر فإنفجر كبركان هائج، وغاب الشاطئ بكل ما فيه وما عليه، فقفزت وسط سواد القرار صور الإخوة الصغار وشيبة الوالد، وشرك الصنار العالق بالصخر، ولعب النوارس على صفحات الموج، وقصر مدة الصيد الخريفي وتقافزت في يده عصا الدفة التي تلقفها أبوه مشفقا عليه ليسكنها يافوخ صاحب القرار.
ثلاثون يوماً يا ظالم، ساعة من التأخير تعنى في مذهبكم شهراً؟!
هل أصبح البحر...؟
لكن نافورة الدم المتفجرة من صدره كانت أسرع من أن يكمل سؤاله، فاحتضن الرمل المفروش بالحناء جسده الصريع والمغسول

بماء البحر، وكان القفص الحديدي هو المانع الأول طيلة سنوات خمس من ركوب البحر ومد شرك الصنار.
كاد الزلف يخترق شرايين زند سعيد الذى هام مع رفوف النوارس البيضاء يتجرع علقم المأساة مخلفاً أخاديد امتلأت برمل الشاطئ فتسللت إليه موجة تحمل دفء العاشق من وسط تهادى اجنحة النوارس التي ما زالت تمر بالمكان وتبعث موسيقى العودة مع نسمات الأصيل إلى قدميه لتخلصه من اجترار الألم واعتصار الكآبة، مسح عينيه ومشى إلى البحر، وقف ودَ لو يدفن آلامه فيه، لكنه انحنى وغسل وجهه ومضى صوب شراع الفلوكة المتربع فوق اللجة.

الـفـنــار

إهداء

إلى روح الشهيد الريس

"جميل حُسُن"

الفنار

تراقصت عيناه شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، فوقاً وتحتاً حينما خرج من كوخه المطل على البحر مباشرة. دار حول الكوخ يتفقده كعادته، يدفن جحر سرطان هنا بات الليلة بجواره، أو يدق مسماراً هناك قد برز ألواحه، تلك الألواح التي جمعها مما يقذفه البحر على مدار السنة حولت كوخ الجريد إلى خشب، وكم حادث الألواح رافعاً لواء الأسئلة المحرجة وسط خيالات لا حدود لها: "من أي المراكب أتيت؟ وما المسافات التي قطعتها؟ وما مصير الصيادين الذين كانوا على ظهرك"؟

بالتأكيد قد عصفت به الأنواء، أو غالب النعاس ربان المركب وقد أعياه السهر أو هده الشوق والحنين فكانت تلك اللحظة الهائمة والتي تبلغ أجزاءً مقتطعة من الثانية، فكانت المصيبة والكارثة، وكان الاصطدام بصخرة عمياء حولت المركب إلى شظايا من

ألواح هائمة تتقاذفها الأمواج، ومن ثم تتلقفها الشطآن الجائعة.
أنهى جميل حُسن دورته اليومية حول الكوخ، نظر ناحية البحر، جمع بعض الأخشاب المتناثرة، أشعل ناراً، ركب براد الشاي الصغير عليها، غرز ركبتيه في الرمل الناعم وجلس، أخرج سيجارة "الهيشة" من علبتها المعدنية الصدئة وزرعها في فمه دون إشعال منتظراً غليان الشاي بفارغ الصبر. حينما انتهى من كوب الشاي نزل تاركاً كوخه الرابض على التلة كفنار يهتدي به الصيادون فمنه ينطلقون وإليه يعودون حاملين صيدهم وهمومهم وأحلامهم أيضاً، بعدما يكونوا قد استرشدوا البحر من الريس جميل "أبو البحرية" فخبرته على مدار ستين عاماً جعلته مثل محطة أرصاد جوية، وجعلت البحارة ينعتونه بشتى النعوت "أبو البحر".. جد البحرية.. "فنار الشاطئ" أما اسم حُسن والذي التصق باسمه فهو اسم ابنته الوحيدة التي عاش لها فترة شبابه حتى زفافها إلى عريسها، محرومة من زغاريد الأم التي طوتها يد المنون وكانت حُسن حينذاك لم تزل في العاشرة من عمرها، وبقى الريس جميل أبا للبحر ولحُسن أيضاً.
حين بدأت الشمس ترسل أضواءها البرتقالية لتتلقفها أمواج البحر راسمة لوناً مألوفاً لديه وصل إلى الشاطئ بسمل"طرح"شبكته لتعانق عب الموج الذي أدمنها، وحين سحبه ابتسم ابتسامة عريضة على وجهه. كانت الأسماك تتقافز على الرمل احتجاجاً أو فرحاً أو حزناً، ثم استكانت كأنها في سبات عميق. "طرح" شبكته من جديد وأرسل بصره على المدى الأزرق اللامتناهي وانتظر، لكن صوت عربات طغت على هدير البحر قطعت سرحته، نظر ناحية الصوت، كانت عربات سوداء مصوبة نحوه وأيدٍ محمومة تؤشر له. خلص الشبكة من أثقالها، وكانوا قد نزلوا..تفقدوا المكان فهمس

في سره "ربنا يستر" فتحلقوا حوله.
صار وسطهم والشبكة تعصر ماءها على الجسد النحيف، ابتدره أحدهم سائلاً:
_هذا الكوخ تبعك؟
- نعم تبعي.
_ هادا بعد شوية مش لازم يكون هون...
_ أنت فاهم.. أنت بتسمع.
تسمر مكانه، بحث عن لسانه عبثا، ود لو يصرخ، يزعق زعيقاً حتى عنان السماء.
كانت العربات قد انصرفت، وتوارت خلف أشجار النخيل والأكواخ الطينية.
همس في داخله: مجانين.. نعم مجانين.. كيف أهدمه؟؟... أهدم نفسي لو هدمت الكوخ. وأين يذهب الصيادون؟؟ هذا كوخ الفنار كيف أهدمه؟
كان ظل الكوخ يمتد لعدة أمتار جهة الغرب عندما ركن بجسمه النحيل المتهالك من هول ما سمع إلى ألواحه والتي شدت البحر إليه، فجاءت أمواجه فرحة متهادية، تحمله برفق صوب الأعماق البعيدة..
انسحب البحر بسرعة حينما هلل البحرية تهليلاتهم المعهودة طارحين السلام: يا ريس جميل.. يا أبو البحر.. أين أنت؟
لكن المفاجأة ألجمتهم، وردت أصواتهم إلى داخل حناجرهم، كانت المرة الأولى التي يرون فيها دموع الريس جميل حسن"الفنار" تبلل عينيه وتسقط بهدوء على وجنتيه المتهدلتين.
تجرع البحارة الخبر قطرة قطرة، ضاعت فرحتهم بالعودة سالمين، كسر أحدهم شرنقة الصمت:
_ يوم الغمقة بعشرة شط.

أجابه آخر:
_ هي المية الصافية بتجيب سمك؟
قال آخر:
لو هجرك البحر دوم ما تبعدش عنه يوم. أمثالهم، مواويلهم الحزينة
أيقظت فيه شيئاً ما، قال بصوت ثابت:
_ يا رجال عودوا إلى حبيبنا.. إلى البحر عودوا.
ارتسمت الدهشة على محياهم، تطلعوا في وجوه بعضهم البعض
هتف أحدهم:
_ من أين يأتي الرزق والبحر يصغر أمامُنا يوماً بعد يوم.
عقب آخر:
_ ما دخلهم بالكوخ؟ لست أفهم.
قال صياد شاب مفتول العضل:
_ يا جماعة.. إنه الاحتلال.
تطلع إليه الريس جميل زغردت فرحة في صدره، أمن على كلامه:
_ ليس البحر هو المستهدف، بل الشط أيضا.
احتجَّ شيخ في الخمسين:
_ الله أكبر.. البحر لهم والبر لهم؟
عقب الصياد الشاب:
_ والسماء أيضاً.
كانت العربات قد أطلت من بعيد، خنافس تزحف على الرمل، الهدير
يقترب، جماعات الصيادين تتوافد، كثر الحشد، أحاطوا بالكوخ من
كل اتجاه، حموه بأجسادهم التي لوحتها الشمس وصبغتها بالصبر
والسمرة، العربات صارت قريبة جداً، الأجساد صارت أكثر
التصاقاً صارت جسداً واحداً يلتف ويحضن الكوخ الفنار.

الشندر

إهداء

إلى روح الشهيد الريس

خليل حمودة حسين قنن

"أبو محمد"

الشندر

عصر ذلك اليوم، كانت الآراء متباينة حول دخول البحر، ولكن الأمر حُسم أخيراً فلا صيد الليلة إلا أن بعض الصيادين وولدي الشندر، التي افتقده الجميع ركبوا البحر:

_ مال الشندر قد تأخر على غير عادته؟!

قالها أحدهم متعجباً، وما أن أنهى سؤاله حتى سمع الجميع نحنحته المتميزة، فتململوا، وأعادوا ترتيب جلستهم كمن يستقبلون زعيماً، أو شاعر ربابة، وتمتم البعض بصوت شبه مسموع: "بس لو الله:" وما أن جلس حتى امتزجت التحية بأحلامه" سيكون من اللنشات النادرة في طوله وعرضه، سيركب ظهره عشرون صياداً، ستتفرجون على ماتوره وونشه، سيكون عروس الشطآن. أما البيت يا عيني عليه، من الحجر الإسمنتي والإسبست الأصلي، أما الشبابيك،

فسوف تعانق موج البحر، وسيضم مطبخاً وحماماً، وستلغى دورة المياه الخلوية التي يصعب استعمالها في ضوء القمر، أما زوجات الأولاد ستعجز ألف ليلة وليلة عن وصفهن.

هذه هي أحلام الشندر التي أصبحت معروفة لدى كل أهل العزبة، صغيراً وكبيراً، رجلاً وامرأةً، فلا تخلو جلسة كان فيها إلا صال وجال بحديثه عنها، لا يفارق جلسته إلا والابتسامات على شفاه الجميع، وكان يصوغ أحلامه في كل مرة بأسلوب جديد وكأنه شاعر الصيادين، كان يعلو مع حديثة ويهبط وتمتد يداه "كمايسترو" شارحاً معلقاً، وحين ينتهي من حديثه يردد لازمته المعهودة "بس لو الله" ثم يفرك كفاً بكف ويمضي.

كان الشندر قد أنزل فلوكته بولديه إلى البحر، وسط توصياته ونظرات ولديه المعاتبة والتي أصبح لها خبرة في ركوب البحر، وكأنهما يعرفان صواب رأي البحرية الذين لم ينزلوا البحر، فالريح غير مستقر هذه الليلة ودع الشندر جلسته، والأحلام ترافقه إلى منامه، تطارده مع تقلباته، وأخيراً غلبه النوم لكن ديّكة العزبة بعذوبة أصواتها أيقظت عيوناً شاهدت صنوف الأحلام والهواجس.

تنحنح، عطس – تنخّع – كبّر – افرش الأرض، لكن صلاة الصبح انقطعت مع اللهاث والهمهمات، واندفاع الأقدام التي تدب في غير ميعادها، وما أن أدار وجهه مسلماً حتى اخترقت عيناه الحوش السعفى لتلمح أشباحاً يتجرحون من ثقل ما يحملون.ارتمت الأجساد بحملها في جوف السقيفة كمن لجأ إلى مغارة وسط عاصفة ثلجية، لكن صدر الأم الذى دب فيه الارتياب ضاق الصورة:

- أرأيتم شندر؟!

- لا

- اسكتي يا أمي.. أخيراً سيحقق الشندر كل أحلامه، ها هي الأماني في الأكياس تبتسم لنا، سيشتري اللنش ويبنى البيت، وسنتزوج.
شدة المكان.. استعاذ بالله.. شاهد الفلوكة بين الموج وبين الرمل، تجسدت الأشباح، سمع الصوت، ولكن صوت نحيب الأم الهارع للخارج كان أقوى "لا.. لا.. وألف لا.." تلقفتها ذراعاً الشندر.
أحست بالدفء، نزلت حبات الدمع الساخنة، قرأ بعضها، دارت في الرؤوس عاصفة، اختلطت الألوان، انتفض البحر، اهتزت السقيفة بما فيها، إنها أول سقيفة بنيت في الغربة، وولد فيها الحب الأول، وحملقت العيون في أفق يمتد حتى آخر الدنيا، انطلق الشندر خارجاً، ضاقت به السقيفة، دار في أرجاء العزبة، وقف عند حدودها، واجه البحر الغاضب، حملته أمانيه ورمته في اللجة، الأحلام سهلة، كيف السبيل إلى تحقيقها؟ تلك هي المشكلة. جاء الأولاد بحملهم الثقيل ألقوا حملهم على صدره، على روحه، تعال يا شندر، كم تمنيت وقلت: "بس لو الله"؟ ها هي الفرصة تأتيك، والفرصة لا تأتي في العمر إلا مرة واحدة. أحلامك كلها تستحق، وربما أحلام من في العزبة. فقط عليك إعمال العقل، وقليلاً من الدهاء. لكنه السم كم شاباً سيدمر وكم أسرة ستقوض أركانها؟ كل هذا من أجل ماذا؟؟ بيت ولنش؟ ملعون أبو البيوت على أبو اللنشات.
لكنه الخاتم المنشود، قل الجحيم القاتل. الأماني التي طال انتظارها، بل الضياع الأبدي. إنه تطلع الصيادين. كلا إنه قتل الولد. إنه عطاء البحر، لكن البحر يلفظ كل خبيث، يقذفه للرمل لكي تلتهمه الشمس، إذن فلتكن يا شندر بحراً.
أخيراً نهض، واتجه إلى السقيفة بخطى واثقة.
علت نار الشواء والتف عمود الدخان صاعداً بعبق السمك المشوي،

وتعالى الصراخ. رمال.. موج البحر.. جرار الماء. إنه الحريق. سقيفة الشندر.

كان أهل العزبة قد أيقظتهم رائحة الدخان وصوت اللهيب، ما ألذ طعم السمك المشوي، كان الشندر يشير بيده لتناول طعام الإفطار الصراخ يتعالى، والرمل ينهال"نياله.. إنه يضحك. شو ها الشندر. "كأنه احرقها بيده".

ومن بين حجر الطين الملتهب، وحزن الصيادين، و قهقهات الشندر التي ارتفعت بارتفاع عمود الدخان، السقيفة تبث صوراً وألواناً، عاودته هواجس الأحلام من جديد، ها هو اللنش يتراقص على صفحة الموج، والبيت مطلي باللون الأبيض أما زفة العرسان فمحاطة بباقات الرياحين والزنبق.

وقف الصيادون يهونون عليه "ربنا يعوض عليك.. ضربه تخطى الرأس سليمة"

فيرد وعيناه تغزلان البحر والفلوكة تجري: "بس لو الله...".

السردين المّر
إهداء
إلى روح الشهيد الطفل
أكرم زكي حمدان

السردين المُّر

"فيشار... فستقية... ترمس"، صعد صوت البائع وسط هدوء لا يخلو من أصوات أطفال الحارة القريبة من المسجد، ساعتها طار أحمد من وسط أصحابه صوب بائع الفشار، وما أن غاب في الزقاق الخلفي لاحقاً به حتى امتلأ الجو بالغاز والمطاط والرصاص، حيث كانت الدورية قد وصلت للساحة، واعتدت، وتلك عادتها، على الشباب بالضرب والإهانة، فأمطرها أهل المخيم بالحجارة مما زاد من غزارة زخات الرصاص.

ومن طرف الزقاق الذي يشرف على الساحة لمح أحمد البائع الذي انزوى بعربته بجوار الحائط محاولاً الهرب من المنطقة، وتسلل أحمد من زقاق لآخر حتى وصل الجهة المقابلة له غير عابئ بما يحدث فالموقف يعيشه كل يوم من وإلى المدرسة، أما الحصول على الشيكل و بائع الفشار فهذا هو الأمر الغير عادى.

لم يمر على دخوله الصف الأول الإبتدائي سوى نصف عام دراسي، حينما كان صبيحة يوم الجمعة مع اللحاف صراع المستبسل حتى آخر شبر فيه، عندما حاولت أمه رفعه عنه، لينكمش تحته مغطياً وجهه، ومغمضاً عينيه، متمتماً بكلمات متقطعة"أمانة يمه.. خليني نايم.. اليوم الجمعة".

لكن الشدة هذه المرة كانت قوية افقدته السيطرة على اللحاف، ففلت من يديه، فرك عينيه المحمرتين قائلاً:

_ "اليوم ما في ثنطة.. ولا تفتيش على النثخ، ولا مطاط ولا غاذ".

ومع كلماته اللثغاء كان قلب أمه يحجل فرحاً:

"احنا بهاليوم اللي رحت فيه المدرسة، وصرت تعرف النثخ".

اراد أحمد أن يحترم توصية معلمه الذي اشترط عليهم التحدث باللغة الفصحى، فسأل أمه:

-هل حضر أبى؟ فردت عليه:

- لم يحضر بعد.

– يا رب يجيب سردين، قالها وهو يسرع صوب الباب متابعاً حديثه "هيني ثردت، والله ما أغثل وجهي"

وغاب في الزقاق الطويل المقابل لباب الدار وضاع صوته وسط أصوات الصبية الذين احتفلوا بيوم الجمعة كم يطول معه اللعب وتحلوا معه الحلوى ومناظر عربات الباعة المزركشة وأكياس الفشار والبوظة اللذيذة.

أخذ أبو أحمد الذى عاد لتوه من ليلة بحرية مضنية يفرك قشر السردين العالق بيديه ووجهه وشعره، ويتخلص من ملابسه التي ما زالت رائحة السردين تفوح منها، حيث اعتادت أم أحمد عليها وهى تساعده في ذلك: "إنني أنتعش بهذه الرائحة أكثر من رائحة العطر

الذى لم أشمه إلا في الأسبوع الأول من عرسي" قالتها وأطلقت ضحكة قصيرة.

تصفيق... رقص... دبكة... هودلية، عمّت البيت حينما عاد أحمد من الحارة، وفتح الباب بقوة لا تناسب عمره، واطلق عيني نسر تفتشان صحن الدار، اتجهتا ناحية الزاوية التي يوضع فيها كيس السردين عادة، وحين وجده منتفخا طالب بالمعلوم "شيكل".

حينئذ حمله أبوه عالياً، وضمه، قبّله، سأله هل عملت الواجب؟ ومع السؤال كان أبوه يحاول إخراج "الشيكل" من جيبه التي تيبست بملح البحر ويهمهم "لقد بعت نصيبي من السردين حتى أوفر... تفضل يا سيدى".

تناول أحمد الشيكل وأنطلق خارجاً، ومن خلف باب الدار هتف: "ما في علينا نثخ"

ابتعد عنا الطراد، وسط الشتم والتوبيخ، مرة بالعربية وأخرى بالعبرية، وكنا نظن أن صالح الذى أبلغ الريس أنه نسى التصريح والهوية على الشاطئ بعدما استقبلنا البحر وغربت الشمس، فقد قفز إلى البحر من مؤخرة اللنش، حيث كان الطراد قد داهمنا من مقدمته، وطلب منا التصاريح وبطاقات الهوية. نفضت أم أحمد قشور السردين التي تطايرت على وجهها سائلة:

_ ما حدث له؟ بادرته الحديث كعادتها لتخفيف شيء من تعبه، فهي ابنة بحار وتعرف هموم البحرية، واصل حديثه، وقد بدا عليه التوتر وَالإرهاق:

كنا حنروح في داهية لولا ستر الله، انتظرنا خروجه، ولكن دون جدوى، هاجت الخواطر وإذ بكومة الشبك التي تلحف بها فور وصول الطراد تتحرك ليخرج مغشياً عليه.

ما زال البائع بعربته يقف في الجهة المقابلة ينتظر الفرصة للهرب تحت مراقبة عيني أحمد الذى سنحت له الفرصة لعبور الشارع، كفراشة فردت جناحيها انطلق بأقصى سرعة ممسكاً بيده اليمنى "الشيكل"بينما راحت يده اليسرى تتفحص ظهره،"الحمد لله"قميص المدرسة سليم من أثر التصاقه بجدران البيوت في أثناء ملاحقته البائع، تلك الجدران المتآكلة، كانت تبرز منه قطع الزلف مثل قطع الزجاج المكسور، وبصعوبة بالغة وصل إلى البائع، وبسرعة البرق التقط كيس الفشار ومد يده الثانية ليدفع، لحظتها بالضبط دوى انفجار قنبلة فارتجفت يده ارتجافه شديدة، وقع معها "الشيكل"على الأرض واختفى بين حبات الرمل، راح أحمد يسأل نفسه "وين الشيكل"؟ وبحدة بصر النسر لمحه بالقرب من قدميه ومع انحناءته التي لا تمثل قوس جناح الفراشة ليكبش الشيكل برمله، حينئذ لمحه أحد الجنود وما أن بزغ بشعره الزغبي حتى انهمر عليه الرصاص فوقع في بحيرة من الدم.

من فوق الأعناق التي علت حناجرها بالتكبير:

"لا إله إلا الله" ما زالت يد أحمد مغمضة حينما اقتحم الوالدان الحلقة حول القبر، وبهستيريا الحنان عضّا الأرض:

_ أحمد... أين الفشار؟

ومع وداعه وقبل لحده بقليل فتح أحد الشيوخ يده المغمضة ومن وسط ذرات الرمل الدامي لمح الشيكل مخترقا ببريقه الباهت عيون المراسلين: إنه شيكل وليس حجراً، هتف أحد الحاضرين.

في كوكبة بحرية تحمل مأتما أستقبل اللنش البحر مع السرحة الأولى للسردين، تحجرت دموع الصيادين، وقف أبو أحمد على مقدمة اللنش ينتظر قدوم الطراد، شدته صورة كتاب القراءة، وصورة خط

أحمد في كراسة "النثخ"... أبى... أمي، وقلم الرصاص الممضوغ من آخره، فقرر متى وأين ستكون مقبرة الطراد.

البحر سنة إداري

إهداء

إلى روح الشهيد الريس

عبد القادر محمد صيام

"العبد أبو دراز- أبو محمد"

البحر سنة إداري

قفز، اتجه صوب البحر، طرح شبكته، اخرجها، فردها، عض على شفتيه، إنها خالية من السمك.

تذكر منع التجول، أدار وجهه جنوباً، بصق، منذ أسبوعين لم يصل إلى الشاطئ، عاد وجلس القرفصاء، أنزل طاقيته حتى عينيه، ترى ماذا حدث لك يا محمود؟

هو هذا الشهر الثالث (ولا خبر عنك ولا درية) حتى المحامي راح ولم يرجع، يقولون إن الغرامة أصبحت (بألف شيكل) الله أكبر من وين؟!

حام دخان سيجارته في الفضاء، غطى الموج من أمامه، مساءً كانت تصب له الشاي، شكى لها البحر؛ (أكثر من خمسين مرة جلت فيها الشاطئ يا أم محمود، لقد غادره السمك، أي بحر هذا، أسلاك شائكة، إشارات ممنوع، أبراج مراقبة، تفتيش على مدار

الساعة، لم تصل الرشفة إلى حلقه، ارتجت الأنحاء، تمايلت حيطان الدار، توسط محمود حوشها لهاثه يغطى الصمت، حروف كلماته؟ (لحقونا أولاد...) أشار له بالجلوس، إنهم يلاحقونني، حاول تجفيف عرقه أشار إلى البحر، تمنى لو يحضره الآن، يعوض فيه، اتجه صوب الشباك، ناداه.

- ابق في مكانك، اشرب الشاي.

- بدي أشرد.

_ بيطخوك.

ايطخو زي ما بدهم، ولا أقع بين أيديهم.

انفجر باب الدار، تحطم، عاثوا فيها، رصاصهم جاهز للقتل.

- أنت تعال هون.

- بتشرب الشاي يا خواجا.

اسكت أنت يا (خج).

ثارت الأم، الأطفال، الأب، ماجت الدار، غاب عن الوعى، العيون تلهبها الشطة، لم يدركم مكث في المستشفى، خرج منه، حمل كيسه، شبكته، اتجه غرباً، أشبه ببحيرة كان البحر، الشاطئ فاتنة انتهت لتوها من تمشيط شعرها، أثر زحف السلاحف عليه كما الدبابيس فيه، زادته طلعة الشمس جمالاً، وجه أم محمود ما زال ينزف دما. أثر اللكمات بقعاً سوداء عليه، عكّرت صفاءه، ترك قدميه لموج البحر، عمقها (صياد ابن صياد يا محمود لكنهم صادوك).

شاهد وجهها، سمع صوتها؛

_ أرسل له رسالة يا راجل...

"أنت هبلة، لأنك لا تعلمين بقرار المحكمة، لقد أرسله لي محامى،... رسائل ايش اللى بتقولي عليها، صادوني أنا ومحمود، ممنوع

دخولي البحر سنة، ومحمود سنة مثلها، وسنة وسجن والف شيكل، من وين انجيب، لقد جاع الأولاد يا أم محمود".
حملق في رمل الشاطئ كأنه يراه لأول مرة، قرأ السلاحف، هذا هو موعد تكاثرها، تدفن بيضها في رمله، تدوسه رشّامات الدورية ليلاً، تفقأه، ينفجر البيض شظايا.
انطلق كما القذيفة، عانقت شبكته عب الموج إنه التجزيف عن خبرة، شدها، أخرجها، فردها، تحولت للون الذهبي(والله وسكنا يا ولاد، كله ذهبان) حفر بيض السلاحف تنتشر بطول الشاطئ، أبي اسكت يا ولد، أنسيت أنى صانعها، خبيرها نظر إلى كيسه، قرّبه منه، اخرجها، تفقدها، إنها متعددة الأحجام صوت محمود يهمس، أكثر من الحفر حولها إجعلها كما شرك الصنار، وزع الجحيم عليها. التفاتته مسحت المكان، اغمض عينيه، بسمل، تحول المكان إلى ظلمة، لفتة، زرعها، نظر إلى السماء، رأى الشهب تهوي، تحرق، أعلنت الشمس أنها لم تغب بعد، استدرك، الوقت أوشك على الممنوع، نظر إليها، كانت تودع الشاطئ، لونها برتقالي، طبعت على وجه البحر قبلة، غفت على صفحته، لوح لها، ودعها،... مسح بيده على الحفرة الأم أوصاها بأن لا تخذله، وشوش السلاحف الصغيرة بأن لا تخف. هدوء الليل، نقطة التفتيش، محمود، خربشة وجهها، سرقت منه النوم، لقد أوصى السلاحف وعد الشمس، حاول أن يغفو، الدورية تدوس السلاحف، تفجر البيض، تمنعه من دخول البحر سنة تغرمه ألف شيكل.
استعاذ بالله، أسبل جفينه، اهتزت الأرض، انفجرت السماء، هب واقفاً. نظر في لجة العتمة، رأى الشهب تهوي، تحرق، تمزق الأشلاء، شاهد الشاطئ، ابتسم، انفرش الضوء، محمود عريساً.

وجه أم محمود يعود له صفاءه، يتبختر محمود مع عروسه، تبتسم السلاحف الصغيرة...

سكنا: تعني الصيد الوفير.. ذهان.. نوع من أنواع سمك البوري؛ يوجد على جانبي رأسه نقطتان صفراون بلون الذهب.

آخر حقائق غرق البحار سعيد

إهداء

إلى روح الشهيد الريس

محمود درويش قنن

"أبو توفيق"

آخر حقائق غرق البحار سعيد

دبت الفاجعة في وسط الصيادين، وسرى في مفاصلهم الوجع وأصابهم هلع شديد، ضربهم كعاصفة هوجاء، زلزلت الصغير والكبير بعد سماع الخبر الذي انتشر كالريح؛ لا بل كما البرق، فخطف الأبصار وذهب بالعقول، فراح الجميع وقد تلبستهم حالة من الذهول الشامل بين صارخ ونائح، وجوال على غير هدى وعلامات الاستغراب المتسائلة تملأ الأفواه والعيون، حتى البحر والفضاء، كيف حدث ذلك؟؟

منقذ الشاطئ، المخلص شبه الوحيد لكل ما يعلق من شباك أو شراك أو يختفي في قعر البحر، حتى أصحاب الآبار الارتوازية يلجأون إليه لفجر مائها، فلم حدث هذا ما حدث؟ وكيف؟؟

هم يذكرون آخر مرة حينما أنقذ ثلاثة غرقى من دوامة يتعذر اجتيازها على أعتى الصيادين عوماً وغطساً وكيف خرج بهم إلى الشط، كان زهرية ورد بينهم، حمل الأول على ساعده الأيمن

والثاني على الأيسر أما الثالث فكان معلقاً في رقبته.
ما زالت الفاجعة تجري في الدم، فيزداد الهلع وتتدفق الذكرى صوراً شتى فيتساءلون ويظل السؤال معلقاً في فضاء لا نهاية له.
من خلص الشنشولة، عندما علقت عن آخرها في أرض الوعر دونما قصد من الريس محمود وهو في مقتبل خبرة المريسة؟!
ثم من ينسى يوم الغربة هكذا سمى ذلك اليوم، حيث كان باب العمل في الداخل قد أغلق، فاتجه كثير من الرجال يترزقون من البحر بدون ممارسة أو خبرة سابقة، كان ينتمون إليه بعشق فطرى ويودون لو تعلموا أسرار هذا العشق ليسدوا رمق أطفالهم. ذلك اليوم كان يومهم بلا منازع فقد جمع بين ذراعيه أكثر من عشرة لم يزاولوا بحريتهم إلا منذ ليلة خلت، وسط ارتعاشاتهم وتهالكهم من شدة الخوف الذي عمّ الجميع، يومها كانت الأمواج تتلاقى متلاطمة، وترتفع باللنش وكأنه حبة من السمسم على رأس جبل ثم تنكسر إلى بحر سحيق، غار حتى باطن الأرض، لكن دهشة ريس اللنش كانت عظيمة عندما رآه يربط الرجال بالحبال التي ربطها حول بطنه العاري، كانت وجوه الرجال قد اكتست رعباً من هول ما يحيط بهم، سألوه والخوف يصرخ في أعماقهم:
_ ما الذي تفعله؟! فأجاب بثقة: لن أتركهم يهلكون، إما أن نخرج جميعاً أو نموت جميعاً، سأكون معهم في الحالتين.
يومها علق أحدهم: "لولا رعاية الله وحنكة سعيد لهلك الجميع"
كان في الثلاثينات من عمره حينما ضمته قضبان الاعتقال بتهمة تهريب رجال اتّهموا بخلخلة الأمن العام عبر البحر.
شباب يافع ممشوق القوام بسواعد فتية فتلتها عواصف البحر، وسيم الوجه، حنطي البشرة، صلابته في التحقيق جعلت المحقق يلجأ

لأساليب غير إنسانية أورثت سعيد حالة من الصراع، وفي اليوم التالي لخروجه من السجن عاد إلى البحر وسط فرحة الصيادين وتهليلهم، كان على الشط يتأمل المدى الأزرق والأمواج تتكسر تحت أقدام الشاطئ ومع تأمله تساءل في داخله"ماذا لو طلب مني الريس الغطس على الشنشولة؟! أو فاجأتني الحالة وأنا بين الصيادين، أو أمام ابنة عمي التي ما زال القلب يعشقها لولا الظروف. عند أي الأطباء أجد الحل يا ترى؟ "ماذا لو رأيت غريقاً تطويه الأمواج وتضيّعه الأعماق".

صرخات ملتاعة لامرأة لا تبعد كثيراً عنه أيقظته من حالته، شدة الصراخ. نظر بين الأمواج، كان صبي يتشقلب من أنياب موجة. لم يتوانى لحظة. خلع قميصه.. اندس بين الأمواج كسمكة فتية، وما هي إلا لحظة حتى خرج الصبي مع دفع الموجة الثانية ترفرف عليه حمامات الحياة، أما هو فقد فاجأته النوبة وهو يحاول الوصول الي الشط، فجرفه التيار بعيداً، ينتقل مع تيارات البحر ويودع صخوره وطحالبه وجوم مشدوه أحاط بالمثوى الأخير، أُنزل الجثمان الملفوف بشراع الفلوكة الأبيض تلقفته أيدي الرجال الذين عرفوا لِتوهم لغز آخر تقرير طبي ضمته حافظته التي حافظ عليها رمل الشاطئ في جيب قميصه، ومع انهمار القبلات المبللة بدموع وجراح الأحزان تشابكت الأيدي متعاهدة.

الشنشولة: نوع من الشباك التي تستخدم في صيد السردين.

البحر الممغنط
إهداء
إلى روح الشهيد الريس
حسين بخيت
"أبو يوسف"

البحر الممغنط

وضع الصيادون اللمسات الأخيرة على تجهيزاتهم، وسط هرج ومرج وحركات وايماءات قليل ممن لا يركب البحر يعرفها.
كان الشاطئ أشبه بخلية نحل فريق يصفي (1) الحبال وآخر يحمل فروش السمك، ويعد المراسي وهناك من ينقل الماء والوقود، ويوزع المجاديف على المراكب بعد تقميرة (2) عجنت خلالها الأنواء البحر وأعادته بكرا بمائه وسمائه وسمكه، إلا فريق الغزّالين الذي تحلق حوله البحرية يشجعونه، فراحت أصابعهم تتلاعب بحركة دقيقة كمن يلاعب ناياً حيث احتكاك المخايط بالماجات (3) وتراقص الخيوط الحريرية التي تخرج عيوناً غزلت لتوها، فمالت رؤوس الصيادين السنفونية:

موج البحر مش عالي اليوم يوم الغزّالين
فيه السمك بيلالي اليوم يوم الغزّالين
يا عيونها عيون السردين اليوم يوم الغزّالين

سحر الأهازيج حرك قلوب الغزّالين، ودقت الماجات على لحن أهازيجهم الخاصة:

---

(1) يصفي الحبال: أي يضعها على شكل دائري.
(2) تقميرة : عي الليالي القمرية، لا يكون فيها صيد.
(3) ماجات: جمع ماجة، وهي عقلة من البوص تسهم في صنع عيون الشباك.

فرجونا شطارتكم بعد شوية الإيد عالإيد بتكيد
الغزل طالب المية الإيد عالإيد بتكيد
والمية مش بعيدة الإيد عالإيد بتكيد
فيها جورة عنيدة الإيد عالإيد بتكيد

كان أبو إسماعيل الذي وصل متأخراً ما زال شارد الذهن، فلم يشارك الصيادين فرحتهم عملهم، مما لفت نظرهم وخاصة ابنه إسماعيل الذي قرأ قسمات وجه أبيه فالتجهم والحيرة تعلوها بلون شاحب يميل للسمرة فبادرهم أحدهم:
- ما بك يا أبا إسماعيل؟. . عسى الأمر خيراً؟؟
أومأ برأسه بعد أن أدرك قصوره اتجاههم، إيماءاته لم تدل على

إجابة شافية:
- لا.. لا شيء.. الأمر على ما يرام.. الله يعطيكم العافية، نظر ناحية إسماعيل، أطال النظر. كان إسماعيل قد خرج من المعتقل قبل أسبوعين، ذاق خلالهما والده الأمرّين طيلة فترة اعتقاله. فإسماعيل ساعده الأيمن في الصيد وتوفير قوت العيال، وهذه العتمة هي العمود الفقري بالنسبة لباقي العتمات والتي يعوّل عليها الصيادون بياتهم الشتوي الطويل، فهي إن لم توفر نقوداً وفرت فسيخاً.
مازال أبو إسماعيل يغرز ركبتيه مولياً رأسه صوبها، يخربش بمخياطه عليها كمن يرسم رموزاً، حينما اقترب منه ابنه وجلس بجواره:
_ لابد أن في الأمر شيئاً يا أبي؟
كانت نظرة والده حينما رفع رأسه تخيّم عليها الحسرة والمرارة، وبصوت لم يتعدى الحنجرة بقليل:
_ إنها التصاريح الممغنطة !!
كادت حفنة الرمل التي عفرها إسماعيل حينما صرخ أن تدخل عيني أحد الصيادين القريبين منه:
_ ما شأن البحر والتصاريح الممغنطة؟!.. ألا يكفينا تصاريح؟! هذا تصريح أحمر للفلوكة؛ وتصريح أصفر للشط وآخر لركوب البحر.. ناهيك عن الهوية، فلماذا التصاريح الممغنطة؟!.. حتى البحر أصبح ممغنطاً؟
كانت النسمات الرقيقة تهب على وجوه الصيادين الواجمة، وعيونهم المحملقة في وجه أبا إسماعيل، يريدون أن يكمل ما سمعه فخبره أشبه بقنبلة نسفت جذور البحر عن آخره، إلا أن سكوته أنطق أحدهم:

"ويش يعني"؟؟ مش راح نأخذها.
وهنا خرج أبا اسماعيل عن صمته، ولكن بدون صوت:
"لا تدري يا عزيزي ماذا يعني رأيك؟" يعني أن حرارة الشمس ستخرج ألواح المراكب عن هياكلها، لأنها بدون ماء البحر لا حياة لها. إنهم يمارسون علنا ضغط الجوع لأنهم يعرفون مواعيد عطاء البحر، ناهيك عن الدوريات الليلية داخل البحر.
رفع أبو إسماعيل رأسه منهياً حواره مع ذاته على سؤال من أحدهم:
_ ما الضرر من أخذها؟
_ أجاب إسماعيل وهو يعرف ما يفكر فيه والده: هنا ستكون المأساة لأن صيد"السردين" يعتمد على عدد كبير من البحرية والعدد الذي سيحرم من دخول البحر ليس بقليل، معظم الشباب سيحرمون.
اعتدل أبو إسماعيل في جلسته وملّس بيديه على وجهه حينما وجّه الصيادين سؤالهم إليه مباشرة:
ـــ ما رأيك؟؟ فالحقيقة مرة كما ترى.
ليرد بصوت خشن كمن وقفت في حلقه شوكة:
_دعونا نأخذ التصاريح ونركب البحر.
كان الطابور طويلاً بطول الشاطئ، هذا يربط سرواله بحبل، وذلك يدلي قميصه ساتراً عورته.
_ من يأخذ تصريحه ويدخل البحر، ومن لم يأخذه يخرج من بوابة الميناء؛ هذا ما قاله مكبّر الصوت وصل إسماعيل بدوره إلى الشباك، وقف كمن ينتظر نتيجة امتحانه، تذكر الشبابيك السوداء المحاطة بالأسلاك، فازدادت ضربات قلبه، هرش رأسه، نظر

إلى والده إلى البوابة التي تلقفته بعدما قلب الجندي شفته السفلى وهز كتفيه: ما في.
علت أصوات البحارة من كل صوب تعلوها الهمة متحدية القهر، و تتدافعت السواعد السمراء تزف المراكب التي زينتها الشمس في بحرها العاشق.

هيلا ليص يا الله يا الله
هيلا ليص استنى شوية
هيلا ليص عد بحنية
هيلا ليص احنا البحرية
هيلا ليص ما بترمينا
هيلا ليص ازعم قوة

كانت العتمة تبشر بصيد وافر، لكنها جاءت حزينة بحزن أبي إسماعيل الذي كظم غيظه حينما شاهد ابنه ليبتلع الحسرة، وأحس هو بالمشكلة القادمة والتي ستقع على كاهله، فلم يعد ذلك الصياد الشاب الذي كان يحمل المنوفيل، كله على كتفته من وإلى الفلوكة.
عانقت المراكب الموج الذي فرش لها بساطاً أزرق انتهت خيوطه عند حدود خيوط الشمس الذي سكبت كل جمالها لتستقبل مع البحر الصيادين الذين قفزوا إلى مراكبهم، ومن بعيد وكمن سمع هاتفاً يناديه: ارفع رأسك.
رفع إسماعيل رأسه دون مبالاة لخصلة الشعر التي علقت بالسلك المحيط ببوابة الميناء فتدفقت مآقيه بدموع الفرح حينما رأى والده ومعه اثنان من الصيادين يلوحون له، فأحس بالزهو نظر للبحر..

للأفق.. للميناء.. للمراكب.. للصيادين، فكر بعمق وقبل أن يغادر الشاطئ رفع يديه المتشابكتين ملوحاً للجميع حيث كانت الصورة واضحة في رأسه.

المنوفيل: نوع من شباك الصيد؛ يستخدم في فصل الشتاء.

ويحكي البحر حكاية عشق
إهداء
إلى شيخ الصيادين ومختارهم
الريس الشهيد عبد القادر حسن قنن
"العبد حسين ـ أبو محمد"

ويحكي البحر حكاية عشق

شاطئ البحر لا يتسع لزرافات الوافدين، الصواني مليئة بالدقيق تعلوها باقات الرياحين والزنبق، تطرزها قناني الشربات، علب التوفي، صواري المراكب، أشرعة المراكب تفرش الأرض ظلاً، تتدلى كهارب اللوكس منها، حلقات في كل المسارب؛ الأولاد بجلابيبهم البيضاء، تنورات البنات مزركشة، يجرون في كل الأنحاء، الأخبار متناقضة؛ الشندر سيزوج ولديه، خديجة ستقطع ليوسف، يهلل الأطفال ابن أبا سمرة أصبح مدرساً، محمود خرج من سجنه.

الشمس تجوب عزبة الصيادين، تحاول فك اللغز، الزغاريد تنطلق من كل الجنبات، تلعلع في الفضاء، تزيد الأمر غموضاً، أشرعة المراكب تزداد انتشاراً، يمتد الظل من تحتها، يتسع لكل الزرافات، الرجال يأوون إليه، الجميع يعانق الجميع، جرار الماء على قرون النسوة تنتصب كما الخناجر، حواجبهن، أهدابهن، عيونهن، خناجر.

الشمس مازالت تتفحص الأمر، يشاركها الصبية؛ على ما يبدو أنه حفل تأبيني لشهداء العزبة، اللنش الكبير سيصل اليوم للميناء.
مراكب تهل قبالة العزبة، تستعرض البحر تنزل أشرعتها، تنتصب صواريها، تصدح الأهازيج من فوقها:

لا يا أسمر اللون لا يا أسمراني يمه
لا يا أسمراني
حبي ومحبوبي في قصر عالثاني يمه
في قصر عالتاني
لا يا أسمر اللون هوّد عبو سقل يمه
هوّد عبو سقل
روحي معلقة في السمرة أم البكل
في البيضة أم البكل

البحر "بلنصاً واحداً" ينزل منها الصيادون، يحملون معهم الكهارب، الأشرعة، جاءوا من شطآن شتى، الصوان يتوسط العزبة، باحة واسعة فُرشت برمل الشاطئ، يتجهون نحوه، تتوسطه دبكة الصيادين، يدلعن الأرغول، يمتد الظل، تميل الشمس صوب الناحية الغربية، تحاول استكشاف الأمر، يميل معها الجميع، الكل مهندم، الحديث متداخل، لكن البسمة تعلوه، الأمر ما زال غامضاً، زرافات الوافدين مستمرة الشاطئ يمتد، يتسع، صواني الدقيق الشربات، الرياحين والزنابق تتجه في مسربة واحدة، تدخل بيتاً ما، رايات بيضاء ترفرف فوقه، أسراب الحمام تظلل سماء العزبة، يهب الهواء طرباً، تتجمع الرايات عند الجهة الجنوبية

الغربية، يلّوح الصبّية لبعضهم، يهربون، لقد وصل مزّين العزبة، يشاور لهم بالموس "من فلت هذه المرة سنقطع لهم بالمرة الثانية" اصّفرت وجهوهم، وضعوا أياديهم على حماماتهم، غنت البنات:

"طاهرو يا مطاهر وناوله لأمه
بالله يا مطاهر ما تسيل دمه
طاهرو ما مطاهر وناوله لأبوه
المرة هوه والجاية لأخوه"

ابتسم الأطفال اقتربوا منه زادت زاوية ميل الشمس حدة، تورد خد البحر، طلت العذارى، ازدحمت بيهن المسارب، أثواب "التوسيا والجنة والنار" تمتص ضوء الشمس، يسطع بريقها، يتهامسن "ماشطة" العزبة في دار أم...، ينتش الصبية مناديلهن، يتمايلن، يلحقن بالأولاد، تتطاير خصيلات الشعر، تنفرط قلائد المحار، تسقط على الأرض يجمعنها، ينعكس تورد البحر على الوجوه، تلتف الأيدي على الخصر؛

"يا ظريف الطول وقف تقولك
مهما لفيت العزبة احسنلك".

الزغاريد تسابق الشمس إلى البحر، الجحافل تترك الصوان، تتجه صوب البحر، تقف على الشاطئ تنظر للموج، للشمس، تميل للمغيب، الأهازيج تصل آذان السمك، يتراقص الدلفين من أمامهم، يتجلى عرق الصيادين، يتوحد، يزداد الدولفين طرباً، أسراب الحمام تصل بيوتها، تقف عليها، تنظر صوب البحر، تهدل، تنفش الذكور ريشها، يلد البحر لنشاً جميلاً، عملاقاً، ينبلج القمر، يجف العرق تعلو اللنش كوكبة يستكين البحر على شفة الشاطئ تمتد أنوار الكهارب، تظهر معالم الكوكبة، تتصاعد الزغاريد، يطغى

صوت النسوة على صوت الموج:

وين أمك يا يوسف تهنيها وأرقص وأغني في علاليها
وين أمك يا محود تفرحها وأرقص وأغني في مطارحه

اتتلألأ نجوم السماء، يعتلي الشندر مقدمة اللنش، تتوحد زرقة البحر بضوء القمر، يحجل الرجال فرحاً، شقاء العمر يتجسد لنشاً، يهل من وراءه العريس جابر، يحمل الصبي يوسف، قطرات بلون الحناء تزين جلبابه، تفن خديجة زغرودة، يسمعها الجميع، "من خلف ما مات"يطير الصبية نحوه، تتلقفه، ترش حمامته بماء البحر، تسقط من العين دمعة، يصرخ؛
إنها تؤلمني، تتضاحك البنات، يمسك الأطفال بحماماتهم، يبارك الجميع، يقبلوه، يقفز محمود ملوحاً بيده من فوق اللنش، يلف حول عنقه شريحة من خام الفلوكة، منذ أسبوع خرج من المعتقل، تتزاحم العذارى، يبلل موج البحر ثيابهن، تتعالى الزغاريد، يسير الموكب، ينزل هو عن التلة، يلتحم به.

المجموعة القصصية

(الثانية)

مهرجان في سوق الباذنجان

1998 م

إهداء
إلى رمز الحب والحنان والعطاء
إلى زوجة الشهيدين
(سليم وخالد)
إلى زوجات الشهداء جميعاً
إلى روح أمي

زغاريد العودة

أخذ موقعه خلف الصورة كعادته في كل ليلة، سحب قوس كمانه، استعد لعزف سيمفونيته المعادة للمرة الألف، لكنه لم يبدأ شعر بحركة، أطل برأسه، شاهدها واقفـــة أمام الدولاب، أخذت منه شيئاً أبيض، تأملته طويلاً لامسته جسدها عادت إلى السرير ألقتــه، ارتدته، اقتربت من الصورة، كانت معلقة قبالتها، حدقت بها، أحس بقلقها، تراجع، تحصن في موقعه.

صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر هدأت الحركة، أطل من جديد، ألوان شتى تتحرك بين الأصابع، ابتسم، مقدمة السمفونية لها سحرها الألوان مزركشة، لم ترها منذ عام، اشتم رائحة، سحب قوس كمانه، تذكرت أنها من أثواب العرس، فستان الزفاف، المشط الوردي، العقد العاجي، كما الفراشة تهاوت

على السرير، أشارت إلى الصورة...إني في انتظارك.
أثارت فضوله، زحف للزاوية السفلى من الصورة، شاهده، كان شاباً وسيماً، لم يتعد الخامسة والعشرين، ارتسمت على وجهه ابتسامة الرجولة، اقتربت من الصورة، بدأ يبث سمفونيته:
صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر.
لكن همسها أوقف العزف:
_ أين أنت الآن؟!
_ أي الأزفة تحضنك؟!
_ الليلة موعدنا... ترى ستأتي؟
_ لا أظنك نسيت الميعاد... اعرف أن أزقـــــة المعســـــكر مزروعة بالألغام... بالبارود... لكنى أنتظرك.
أطل ثانية، شاهد وجهه، تذكر التفاح، تأهب للعزف، عادت إلى الدولاب، تغير لون القميص، انعكس عليه ضوء السراج، أصبح ورديا، أعادت ترتيب السرير نفضت غبار الوسادة، حامت بعينيها طافت قرميد الغرفة، بحثت عنه، سألته؛ أين أنت صرصاري العزيز؟، ما أعذب سمفونيتك الليلة:
_ هل تشاركني الفرحة؟
_ من أخبرك بأنه قادم؟ !
رفعت سبابتها، راحت تعد حواف القرميد، شاركها العد، صرصر، صر، زق، طـق، طـــق، زق، صرصر، صر، ارتخت السبابة، نزلـــت اليـــد، وضعتها تحت رأسها، تداخلت الإشـــارات، ضغطت اليديـن على بعضهما، تحرك الجسد، أصبح يبث حركات، كمن يصارع كابوساً، هبت واقفـــة، ارتعد، أوقـــف العـــزف، أرهفت السمع، علت الشفاه ابتسامة، لكنها سرعان ما تلاشت عندما

دخل الفأر أسفل الدولاب:
صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر.
تذكرت طريق المدرسة، خاطبت الصورة:
_ آنذاك خفق قلبي، رقص، تسمرت عيناك بي، أحسست بأنك قدري وبأني لك، لم أفكر طويلاً عندما طلبت يـــدي، كتلك الليلة، عندما دخلت الغرفـــــة وأنت تمتشق المخيم، كان على كتفك كزنبقة تعلو الجبل، وافقت على الفور، لم انتظر حتى تستنتج أمي حياء الرد، قلتها وبملء فمي... نعم.
صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر.
انخفضت ذبالة السراج بهت لون السرير استكانت الأهداب مال اللون الوردي إلى الزرقة الباهتـــة، انتهز الفرصة زحف من خلف الصورة توسط سقف الغرفـــــة، اخترقت ايماءات الوجه السقف، قطعت السمفونية، راحت تمـرق أزقـة المخيم، تبحث في العتمة عنه، ترشده، ترتعد من خشخشة البارود، من قعقعة البساطير عند مفارقها، تضغط على الوسادة، يبرق خاتم الزواج في الصدر، تعود الابتسامة... ليلة الزفاف، تضئ كل الأزقـــة، تكتشف مواقع الأشباح، يقترب قلبها من دار "أبو العبد"عند طرف الحارة.
صرصر، صر، زق، صرصر، صر.
تقذف اللحاف جانباً، تعيد ترتيب السرير، تتابعه، تتحسس تجويف رأسه على الوسادة، تفرد ذراعيها، تحضن لا شيء، إنه الهواء يحرك النافذة.
صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر.
جذبتها الصورة، صارت قبالتها، جاء صوته:
_ أعذرينـــي..

رائحة البارود تفسد كل الأزقــة، أحست بأصابعــه ترفع طرحة الزفاف عن وجهها. شق أزيز الرصاص سكون الصبح، زغاريد ليلة الزفاف رنت في المخيم، عاد صوت الرصاص من جديد، تجمعت كل الأزقــة عند ذيل الثــوب الأبيض، انقطع صوت الرصاص، علا صوت المــؤذن، تطايرت أشلاء البارود في سماء المخيم.

صرصر، صر، زق، طق، طق، زق، صرصر، صر، تهادت طرحة الزفــاف، فرشت السرير، كل الأرجاء، غطت الصورة، قبلتها، جاء طيفه يتبختر مع خيوط الشمس، دخل من ثقب الباب.

بياع اللوز

كان حضور عربة (الكـــــارو) برميلها الأزرق نهيق حمارها المتهاوي مع عصر كل يوم يحدث ضجة في الحارة، يتدافع الأطفال نحوها، يعودون وفي أيديـــهم قراطيس ورقية منتفخة، يرددون مناداته العذبة.

_ هيّو بياع اللوز.

_ اجا بياع اللوز.

_ وقف يا بياع اللوز.

حتى عادت تلك المناداة التي تطوف أزقـة الحـارات أشـبه بلازمة موسيقية، يرددها الأطفال مع ألعابهم، فإذا ما نادى أحدهم الآخر يقول:

_ وينو بيّـاع اللوز؟

_ فيرد الآخر: هيّو إجـا...

_ ليُسمع صوت من بعيد:

_ وقّف يا بيّـاع اللوز... ومن ثم يذوبون في لعبهم.

إلاّ أنّ الصوت لم يُسمع منذ ثلاثة أيـام، تتعالى ضجـة الأطفال، طال انتظارهم للوز، لمعاكسة الحمار، يبادلـهم بنهيقه المتقطع تلك المعاكسة، منهم من يجر ّرسنه، يخـزه، يعود صغير و يهرب، يتقافزون فوق العربة، تذوبـه ضحكاتهم، يذوب معها حبّاً وألماً، يحاول تهريب عينيه عن عيونهم، تتفحصه مع كل قرطاس ينـاوله لواحد منهم.

_ ترى ماذا حدث له؟ لماذا لم يأت؟

هرش أحمد رأسه متسائلاً، كان تلميذاً في الصف السادس مسترجعاً آخر مرّة ناوله فيها الشيقل، وقتها تلاقت العيون، احمرّت الوجوه، تمتم: إنّه يُشبهه تماماً... نعم أه... إنه معلم الحساب.
لكن أنفرط القرطاس قد هزّ الصورة: هذا غير معقول إنّه مدرس وسيم... هذا أشعث... إنّه وقور... هذا مهرج...لا.. لن يكون أستاذي... لقد خانني النظر.
يومها عاد الأستاذ يوسف لبيته متجهم الوجه، تلاحقه نظرات أحمد، تطارده من زقاق إلى زقاق، من حارة إلى حارة، لقد عرفني. تأكد مني... أنا أعرفه. إنّه طالبٌ ذكي.
لكن حركة الحمار الذي ينتظر جردل العلف أيقظته، نظر إلى عينيه لا تزالان تبثان صورته الأستاذ يوسف.
آه يا أحمد... لو أنك تعرف مسئولية بداية كل عام دراسي، مستلزماته، وليمة يوم الجمعة، أيام الأعياد واحتياجاتها...إنك لا تري إلا الألوان، ومن حقك ألا تسأل كيف تزركشت ملابس الأطفال، لو كان لك ولد يا أحمد يطلب منك (فراخاً) في وسط الأسبوع كما يفعل الجيران، إنهم يطعمون أولادهم فراخاً في وسط الأسبوع، لما فررت من أمامي منكراً معرفتي.
لو أنك كنت معي حينما ناولني شهادة الثانوية العامة، لو سمعت زغرودة أمه، لو قرأت درجاته التي تمنحه الفرصة لتحقيق آمالنا، لو شاهدتها وهي تمسح دمعتها عن وجنتيها، لوكنت واقفاً وهي تقول لأبنها:
_ ليتك لم تنجح يا ولدي... من أين سيوفر والدك، معلم الحساب مصروف تعليمك، فالمرتب كما تعلم لا يسد حاجتنا الضرورية، لو سمعت رده وهو يقول:

_ هل يعنى ذلك أن حياتي قد توقفت؟ أُنهت يا أمي؟!
وقتذاك لم يدم يا أحمد شرودي طويلاً، لم أدرِ كيف تلقفتــه ذراعي كيف راحت أصابعي المرتعشة تمشط شعره... كيف طرزت دموع الفرحة أطراف شهادته، ترامت حتى غطت السماء،...وقتها لم أر مربع المبلغ الصافي للدفع في(كعب الشيك)، شاهدته طفلاً مثلك، يرسل طيارته الورقية للشمس، لم تكن بيضاء تماماً، كانت تحمل لافتــة كُتب عليها: (عيادة الدكتور محسن يوسف) ساعتها يا أحمد كان وصول صوت بائع الترمس بعربته يملأ حارتنا هيو اجــا بياع اللوز منقذي الوحيد.

مهرجان في سوق الباذنجان

كانت خيوط الفجر تغزو الفضاء، حينما ابتلعتــه غلالة أواخر الليل بسلته عبر الشارع الطويل المؤدي لموقف الأتوبيس حيث تظهر جحافل العمال، كأشــباح لا تميزهم إلا ومضات اللفافات التي تلمع من حين لآخـــر، بينما راح بائعو الخضروات في السوق يجهزون بسطاتهم لاستقبال وعرض بضاعتهم التي أثقلت عربات الكارو.

وقبل وصوله إلى الميدان الذي يتفرع منه عدد من الشوارع الرئيسة بأمتار، اصطدمت عيناه بكتلة بشرية هائلة، تموج كما الكرة المقذوفة وسط بركة ماء. ارتعد.. زادت نبضات صدره، فرك عينيه، اقترب أكثر.. لكن الخطى ثقيلة.. إنها السيجارة.. أشعلها متمتماً: يا له من صباح نحس!! أين الأتوبيس؟! أين العمال؟! الكتلة البشرية تزداد انتفاخاً... ونور الصباح يزيد من وضوح قسماتها وهمس الباعة في السوق الملاصق للميدان يصل إلى أذنيه:

مهلاً على عرض البضاعة... هاليوم مش راح يمشى بخير"حف بالكتلة البشرية، محاولاً أن يمتزج بها ليرى جوفها... ولكن فضوله قد ضعف أمام عضلات العمال من الشباب.. تراجع قليلاً، وقف على الرصيف، لسعته نسمة شرقية باردة، اشتم معها رائحة مسلخ المدينة، إلا أنها أوضحت حروف بعض الكلمات.

لقد أحضروه منذ لحظة. فتحركت شفتاه: ما ألعنها من لحظة، لو تأخروا قليلاً، إنه لا يتعدى العشرين، تذكر الساعة، أنها تشير للدقيقة الثلاثين بعد السادسة حيث بدأت رفوف الطلاب تهل من بين أزقة

المخيم وأسراب الموظفين تحط بأقدامها على الشارع، حف ثانية بالكتلة التي ازدادت دائرتها اتساعاً حتى غطت الميدان، وراحت تندلق على الرصيف، هذه المرة وقف على رؤوس أصابع قديمة ماطاً رقبته إلى أعلى فلم يلمح شيئاً، فراح يلف حول الدائرة ململماً الهمس الذي تحول إلي كلمات مبتورة، وسط زوامير السيارات، إلا أن عويل الكومة السوداء على الرصيف الآخر كانت أعلى: ارحموا شبابه.. يـا ناس.. ارحموا طفله الرضيع. ما زالت أذناه تجمع حروف الهمسات وتحولها إلى كلمات: يقولون انه من تجار آل... ويمارس الزنا.

اسكت يا رجل حرام عليك. أنا لا أتذمم، وراح يمسك بياقة قميصه، هكذا يقولون. أثار الحوار الدائر بين الرجلين غيظه فتقيأ بعض الكلمات والتي بقيت معظمها حبيسة داخل شفتيه. ومن منا ينسب القول للسانه؟!

الدائرة تلد رفـــاً وتحمل رفوفـــاً.

وصلت رفوف التلاميذ ونسوة السوق وأسراب الموظفين، فازدادت الكتلة البشرية انتفاخاً، ومع زفرات اللاهثين من حولها تعالت أصوات الباعة: أحمر من الدم يـا بندورة.. "الرطل بشيكل بس" التقطها مسامعه فانفرجت أساريره. لقد انخفضت أسعار البندورة. عاد إلى الدائرة محاولاً إعمال كوعيه لإفساح فرجة له، لكن عبثاً، فالجميع يطوف بها بحركات لا إرادية رؤوسهم للأمام ومؤخراتهم للخلف، فدس رأسه الذى اصطدم بمؤخرة طفل، حيث كان أطفال المدارس قد سدو كل الثغرات.

الدائرة تلد رفـاً وتحمل رفوفـــاً.

أصوات الباعة المعهودة بنغماتها ما زالت تلعلع في الجو، لكن

نبرات الغيظ جعلتها حزينة.."بغار منك الريحان يـــا ملوخية".. الربطة بشيكل.. مين يقول هات؟ ومع مناداة البائع تراجع للرصيف.. آه لقد انخفضت أسعار الملوخية، فتذكر السلة التي تحسسها، أنها شبه فارغة، فحبات البندورة ورغيف الخبز لم تأخذ إلا حيزاً بسيطاً منها، لكن حيز التساؤلات والتعليقات ما زال يتسع. ألم ينته التحقيق؟! على ما يبدو أنه ليس تحقيقاً!! وما إن أنهى البائع حديثه المضطرب حتى كادت ربطة الملوخية أن تسقط على الأرض لكن يديه تلقفتها معلقاً: هذه فتحة السلة وليس فم الحمار.

الدائرة تلد رفـاً وتحمل رفوفـاً.

ارتفع قرص الشمس ومعه ارتفع صوت جرس المدرسة وزامرات السيارات التي تقف بطول عرض الشارع، كقطار يرتاد محطة انتظار امتلأت عن آخرها بالركاب لكن ركاب الدائرة من النسوة اللاتي أحطن بها كن أكثر.

مسكين هذا الشاب، إنه بعمر الورد.. قالتها إحداهن فتلقت رداً من جارتها قوياً وساخناً: أي ورد هذا؟ قولي شوكاً.. سليات سامة.. الورد الحقيقي هناك، تحت الشمس وفوق الثلج.. دب الرد أذنه التي دب فيها الطنين من شدة اللطمة التي لحقته من يد المرأة الملوحة بانفعال "خليه ياخذ جزاه". كانت اللطمة قوية جعلته يندفع نحو الدائرة قافزاً بقوة.. ارتفع معها فوق الهامات.. إنه سيف.. إنها بلطات.. إنهم !! وما إن لامست قدماه الأرض حتى قرع جرس المدرسة ثانيةً، إلا أن، أحداً لم يسمع تمتمته التي تبعثرت مع إعادة ترتيب هندامه. كم هو مجنون هذا الجرس !!.. من منا يوقظه قرع الأجراس ومع صلصلة الجرس ارتفعت أصوات الباعة أكثر:

"أسود من الليل يا باذنجان.. البيع اليوم بالبكسة"..
"البكسة باثنين شيكل، مين قال دير".
الدائرة تلد رفاً وتحمل رفوفاً.
سيل الهمس المتوتر ما زال يحيط بالبسطات: لقد راحت سروتنا.. وضاعت خضرتنا.. الله أعلم بحاله.. إن كان بريئاً أم.. وهنا هز البائع رأسه وكأنه يطالبه بالمشاركة في الحديث.. لكن رده المتسائل قد ادهش البائع الذي كان يتوقع أن يشاطره الحدث.
كيف سيتقدم للامتحان.. من لم يتلق دروســـاً ي !.. ثم سكت فجأة.
ومع سكوته أردف صاحب عربة الكارو المجاورة همساً: تعب الحمار من حمله ووقفته.. لقد وصلت رفوف الدائرة إلى مرابط الحمير. كادت الضحكة أن تفلت من شفتيه، إلا أنها انفجرت في حلقة الذي جـــف لعابه عندما انفجرت الكتلة البشرية، وكان بركانا قد أصابها، لتنفجر معها كل الرفوف المحتشدة:. . براءة.

للفرح عذابات أخرى

تمرد المرآة، ثنايا الوجه، فرحة البلاغ، نهاية مدة المحكومية، غرفة الولادة، كلام الطبيب، اللقاء. تجذبني من حدود الأربعين، عاد ليلتها متأخراً، التصق بي، همس:

_ إني أحبك.

راحت عيناي تستكينان، شيء ما هزني.

_ماذا حدث؟! ما أبهجها من ليلة، هذه المرة الأولى التي يتخلى فيها عن كبريائه المعهود، تم أصابعه بشعري، تتفحص وجهي، تنتفـــض فرائضي، ينطفئ السراج، تتسع أحشائي، لكنه الدفء البارد.

قاعة المحكمة، الجلسة الأخيرة، الحكم الجائر، خمسة عشر عاماً، إنها الرعدة انقلبت الدار، احتضنت أحشائي، يصرخ الطفل في داخلي، أبحث عن الســـترة، يضيع السراج، تزداد عصابة العينين قتامة، يضيق المعصم بالسوار، يذوب صوت العربات و يضيع الحلم البكر.

المرآة أهجم عليها، تلطمني، تطوحني بعيداً، تشدني، تعصرني، تصر على أخذ روحي، على إيقاف نبضـــي، تحملني إلى مسافات ووجوه، أبواب ودهاليز.

_ أين التوكل؟!

- أنا زوجته.

- كم ولد لك؟!

_ يعوض الله.
جحظني، تفحصني، كانت حركة أشبه بحركات أشباح تلك الليلة، أثرت فيه التقزز، تحول القلم في يده إلى فوهة رعب.
- خذي هذه الورقة، كانت أشبه بالعصابة، قذفها في وجهي:
- اذهبي، يكفيني قرفاً.
المرآة، مازالت تشدني، اقترب منها، ينخلع قلبي، تنفجر الرعدة من جديد، انظر إلى مكانه، يقتلني الصوت، يطاردني.
_ما سبب ذهابك إلى هناك؟!
- حبه لي.
_ كم عمرك الآن؟!
- اجمع إليه خمسة عشر عاماً.
_ لائحة الاتهام تقول بأنه... وأنه...؟!
_أشجار الأحراج المحيطة بمعسكرنا لم تعد تزهر.
_ ماذا أحضرت معك؟!
_ أخبرتني الممرضة بأنهم أحضروني في الرابعة صباحاً، المرآة، استحضر دفئه، تنزلق نحو وجهي، تتفحصه، تتحسس مكان أصابعه، أتلمس أحشائي، يبحث الطبيب عن الوريد، يفك كمامته يعزيني "اللي يعيش ياما يجيب أولاد".
ترتجف أصابع موزع المعونة:"بلاش طمع ــ اشبعوا"تقعر المرآة، سن الأربعين... اللقاء، تقترب الصورة، القضبان المتلاصقة، تبحث يدانا عن فتحة أوسع، تلقط الأصابع بعضها، تتورد أطرافها، تلفني الأشياء، تحوم بي، ألمح أخاديد الوجه، تتلففي جدران غرفة النوم، الستـرة، بلاغ المحامي بانتهاء مدة المحكومية، يزداد تقعر المرآة، يتسع البـــلاغ باتساع الليل، تنفجر الأشجار الحرجية المحيطة

بالمعسكر، تتهاوى النجوم، يجمعها نجمه نجمه، تزهر الأشجار من جديد، يموت السلك المكهرب من حولها.
تأتى الألوان أطيافاً، لون المنديل، لون السترة، سيارة الزفة، أسمع صوت العربات، يحاول الجراد تغطية الصورة، يطوق عنقي، يود لو يخنقني، تنقذني رائحة الأشجار، يعاودني همسه، (إني أحبك).
تتسلل اليد نحو الوجه، أشبه بثنايا الورد تعثر طريقها تشارك الثنايا الجراد.
المرآة، أعواد الهجوم، سن الأربعين يطوف بالمكان، ابتعد، يورق الحلم البكر، ينمو في، يكبر، يعضني المشط، اقترب أكثر، تتورد أطراف الأصابع من جديد، أمعن أكثر، تتلاشى الأخاديد من الوجه، يتقافز المشط في يدي، يفتح أسنانه، يمزق مساومة القلم، وجه موزع المعونة، وجه رجل مخابرات الجسر، تنفجر المرآة شظايا، أجمع ورد السترة، أضئ السراج، اقرأ البلاغ من جديد، تدغدغني المناغاة، تحملني إليه، نتعانق، أسبح في عالمه.

الامتحان

التوتر، يوم الامتحان، مادة التاريخ، تهديد الرئيس بإلغاء اللجنة، كانت يداه تتحركان في كل الاتجاهات، أصلع، أقرب إلى الستين، أميل إلى السمرة أفتح الكتاب، تهتز كلماته باهتزاز رعب المعسكر، بخطوات أمي التي تعد الشاي لسرحة أبي الفجرية، يكتم نحنحته، يسعل داخل المرحاض.

طنين كلمات الرئيس يدب في يـافوخي، ألملم كلمات السطور"لقد وصلت جيوش محمد علي من أعالي النيل" طرقعة البساطير وصلت إلى باب الدار، هزته من جذوره، ألقت بنفسها في الحوش، زادت من ظلمة الليل:

_ماذا تفعل؟!

_ أنا... طالب.

_ ماذا تقرأ؟!

_ تاريخ.

_أيّ تاريخ هذا؟!

لم أجب، حمل الكتاب، نظر إليه، قذفه تحت البسطار، دارت بي الظلمة، قذفتني للبارحة، لقاعة الامتحان، وسؤال البلاغة.

يتحدث عن الحرية والتفاؤل، لكن أبي لم يعد متفائلاً، اليوم ينتهي تصريح العمل، بدا منذ الصباح، وكأنّ عفاريتاً تتلبسه، تتقافز في وجهه، من المطبخ، إلى الحمام، إلى الحارة، إلى أمي، تحاول التخفيف عنه "يا رجل بيسترها الله"

والخمسة أفواه؟ يرد مستنكراً.

انحنيت على الكتاب أحاول إنقاذ "محمد علي" غير أنني أحسست بتمزق أطراف أصابعي، عاودتني البلاغة "مدله اللفتات مستوحش" شرحها المدرس على عجل، وأوحينا له بأننا فهمنا الشرح، إيماءة رأسه توحي بعكس ما أوحينا، و "طاو جناحيه" تعثر القلم مع إعادة الملاحظ لتهديد الرئيس بإلغاء اللجنة.

تربعت صورة أبقي فوق الكلمة "لقد علقوا الجلسة الخاصة بالعمال حتى إشعار آخر" قالها منكمشاً كما البلبل في القيد في سؤال البلاغة، وهو يعيد نشرة المذياع الإخبارية، استحضرت التاريخ، نزعت أصابعي، نزف دمها المنحبس، لم أكرر النظرة، أحنيت رأسي لأوامره، أدرت وجهي للحائط، رفعت يدي، تذكرت صفحة الكاتب، تحت البسطار كان السؤال: حاول أن تتعرف على دوافع "محمد علي" من أجل الوحدة. عيناي ما زالت ترنوا إلى الكتاب (تاريخ العرب الحديث) تحت البسطار، اكتشفني، أغضبه إصراري، أمسك بشعري، أوقفني، أقعدني "أنتم تغشوننا بوادعتكم، بإنسانيتكم، ثم تقذفوننا بكل ما لديكم" تذكرت حذاء أبي، وأوساخ أحذية العمال مكانسهم، جرادلهم في الشوارع، والسؤال ما زال مصراً على الإجابة، تحوم في سماء الغرفة، أتجاذب كلماتها، تخرق الفوهة ظهري، صفحة الكتاب بعرض الحائط، تتجمع الكلمات"جيوش محمد علي متقدمة مكانس العمال، قُففهم تساعدني، يقفز القلم، يكتبها، يتعثر، أقضمه، توضحها حيرة أبي "وصلت الجيوش إلى أعالي الفرات"

انتفض الكتاب، تمرد، إسطنبول مهددة، "محمد علي" تتناوشه البساطير، ليبرز صوت الرئيس مهدداً من جديد، أصلع أقرب إلى الستين، أميل إلى السمرة إلاّ أن صوت بائع اللبن مع خيوط الشمس العذراء "اشرب حليب قلبك يطيب" قد غطى الفضاء.

لبراعم التين ترانيم خاصة

حواكير التين، بوابة المدرسة، عريف الصف السادس، الرصاصة، الشلل، العربة، الكروسة.

تساقطت الإصابات من أمامي، لم ترحمني أنـــا المعلم الذي أكل قبل قليل حبات التين، أخذ البلبل نصيبه منها، يسحرني البكور.

رفض أطفال مدرسة النصيرات الابتدائية الذين أكلوا التين البكر مثلى، أن يدخلوا المدرسة، لم تقنعهم مناداتي، ظل تأثير التين مستمراً.

باقات الورد... مراسلو الصحف... السيارات الفخمة... باب سيارة الهلال الأحمر.

اشتعلت الحمم حمراء، سوداء، نزلن فوق الرؤوس كما الصواعق، ثار الأطفال، حطت البلابل على أشجار التين، نضج الثمر الفج، السجن الرصاص في جوفه:

_ ما الذي أحضركم إلى المدرسة؟!

_ هل ستتعلمون مثل الأطفال؟! ستشجعون على الدراسة؟!

_ أم تنشدون الإغلاق؟!

فخامة الغرفة... أناقة السرير... جمال الممرضة، ابتسامتها، ثقة الطبيب بنفسه...أعادت جزءاً من الثقة، أبرقت في ومضة أمل.

ترك الباعة عرباتهم، فرش الترمس، الجيلاتي، الحلوى بوابة المدرسة، تقدموا مع الأطفال... تراجعوا معهم.

بصري.. سمعي.. قلبي.. انعجن بهم.

_ ماذا حدث؟! لقد أخذوا "عريف" الصف السادس "أ" الامتحانات العامة على الأبواب، إنه من أكثر طلاب الفصل اجتهاداً... قائدهم...

إنهم طلابي، أولادي، أنا مربيهم... كبلوه، ضربوه... لم يفعل شيئاً، فتح حقيبته، رفعها بين يديه، صارت قبالة عينيه، سحب كتابه منها كان يود مراجعة دروسه.

سماعة الطبيب... جهاز قياس ضغط الدم... المريول الأبيض، مشارط غرفة العمليات، كشافاتها تقول بأن العربة"الكروسة"ستنحر أمامها.

زخات الحجارة، هتاف الأطفال: "يا صياد الحمامة...عريف الصف العلامة"، حبات التين عندلة البلابل زادت من توترهم... تراجعوا، تقدموا... اتسع باب المدرسة... فتحت أبواب الفصول، طرزت بالرصاص.

استغرقت العملية ست ساعات متواصلة هكذا قالت لي الممرضة، بسري الهمس، يمر بالشرشف الأبيض، يصل الطنين أذني: ستظهر النتيجة بعد أربع وعشرين ساعة، لكن عريف الصف السادس مازال مكبلاً... فتح حقيبته، سحب كتابة ود لو راجع دروسه، تدك مؤخرات البنادق رأسه، يرفض طلاب الصف السادس، طلاب المدرسة، دخول الفصول، ظلموا في الفناء، تتدلى أغصان التين على الجدران، أمطرت السماء حجارة اشتعلت ثورة الأطفال، امطر الندى قطراته تجمعت البلابل من كل الحواكير، انتفخت حبات التين، استقرت بين عظم الرقبة.

التقطني باب الصف السادس "أ"عصبوا عينيه...جلسته هنا، في المقعد الأمامي... كراسة واجبه من أرتب الكراسات أنظمها، تتوسط قوائم ملعب الســلة المساحة، التصقت أشلاء البلابل بالغصون. النتيجة بعد أربع وعشرين ساعة.

يطول الليل... تتلاطم الأحلام، تتصارع الألوان مع الليل...تدك

رأسي، يوم عرسي... جنازة أبي... ولادة طفلي البكر...، النتيجة مرهونة بنزولي عن السرير، فلت من يدهم، احتمي بعمود ملعب الســـلة، راوغهم، صرخ الأطفال فيهم:

_ اعيده لنا، الامتحانات على الأبواب، لم يفعل شيئاً، ود لو راجع دروسه، واجباته البيتية، اسألوا الأستاذ زكريا. ازداد حصار الملعب، أصبحت القوائم قلاعاً، غطت البلابل الساحة... عصفت اليد السوداء بجحيمها... بحثت يدي عن شيء... بصري...قلبي مثبت بالعمود... راوغهم...، طار صوب غرفة الفصل، دك الباب بقدمه، لم أدرِ كيف وصلت إليه، احتمي بي، غطت البلابل باب الصف، ظهر رأسي من وسطها، طارت به صوب الحواكير، هللت، لوحت، قفزت اقتربت مني بحذر، تفحصت وجهي، امسكت بيدي: حاول أن تنزل قدميك، انفجرت الساحة، حاول أن تتوكأ على كتفي التصقت بالسرير، غادرت الغرفة، انتظرت النتيجة، عادت إليها، دفعت بالكروسة نحو السرير، نظرت إلى وجهي، شاهدت دمعتها، ابتسامتها، رأيت البلبل البرعم، عريف الصف السادس يسبح في فضاء مخيم النصيرات يتنقل بين الحواكير، يلتقط ثمار التين الناضجة.

كعك العيد

حام في فضاء الغرفة، لم يذق طعم النوم، يتوقف بصره عند كل زاوية، أمام كل مسمار ثُبت من زمن، هذه صورة الجد، وهذه صور الوالد، أكل العث معظمها، خيّم اللون الرمادي عليها، برزت المسامير من ضلوعها، أصبحت أطلالاً.

يتسع الفضاء، أصبح دوائر، تتســـع الدوائر، تضـــيق كدوائر كعك العيد الذي يطالب به الأولاد منذ أكثر من أسبوع، وأم خليل تُسمعه موشح الكعك، تبثّـــه وراء كل صلاة تراويح، وحتى السحور.

_ أيرضيك أن يشم الأولاد رائحة الكعـــك، الصاعدة من شبابيك الجيران؟!

_ هل يعجبك أن ينتشوه من أيدي أطفال الحارة؟!

_ وحّد الله يا راجل... كل سنة وأنت طيب، إن شـــــــاء الله خليل ينفك سحنه، وبتفرج علينا كلنا.

يتأوه، يلف الغرفة ويقف أمام الـــدولاب، الباب الأوسط مخلوع، ينظر ملابس أطفاله، تطالبه أم خليل بكسوتهم هي معذور، تنقل أليه أحلامهم، يتسلقون كتفيها، يصلون إلى أذنيها، يوشوشونها، الكل يتكلم همساً، ينظرونه قادماً، ينكمشون، يحاولون إشعاره بأنهم يراجعون دروسهم، يحاصرونه بنظراتهم، يعرفون أنه بدون تصريح، بدون عمل منذ اعتقال خليل. تزداد الدوائر احمراراً، كما الكعك الخارج من الفرن، ينظر من النافذة، الشوارع ممتلئة بالناس، لا يرى منهم أحداً و الكل ضباب، يسيرون على غير هدى، يتساءل:

_هل يطاردهم عمل لكعك؟! أم تطاردهم زيارة السجون،

المستشفيات، كسوة الأولاد؟
تضيق الدائرة تصبح "خرم إبرة" تتجمع أصوات مكبرات الصوت ترن في أذنه، تحطم رأسه:
_ بمزيد من الفخر والاعتزاز تنعى روح الشهيد البطل..
_ يزأر الثالث:
_ بروح القسامية والقسم ننعي روح الشهيد البطل...، إلى الأمام يا قافلة الشهداء.
يتراجع عن النافذة، يتوسط الغرفة، ينظر إلى الدولاب، الباب الأوسط مخلوع، يلمح فستان أم خليل، يختلس نظرة يعود لعشرين عاماً خلت، كان لونه أبيض، مازالت ترتديه، أصبح رمادي اللون، يسمع ضحكات ترن في صحن الدار، تخاطبه:
_ أما زالت نائماً؟
_ لقد أحضرت لك طعام الإفطار.
ينخلع قلبه، صليات الرصاص تمزق كبد الشارع، لم يعد يرى الفستان، أصبح شبحاً، إنها تطالبه بعمل الكعك، بكسوة الأولاد، يعود إلى النافذة، تبرق عفة دمعتها، إنهم الأولاد، تشعره بأنها تعرف "البئر وغطاه" تعرض عليه بقايا خاتم يزين أصبعها.
تتسع الدائرة، يجلس، يحاول إشعال سيجارة و يتذكر أنها الأخيرة و يرجعها ثانية، لقد أكل العث الصور، أصبح الكعك بلون العث، بلون الشارع، بلون مكبرات الصوت، تضيق الدائرة، أسطح المنازل زرعت بالرايات السوداء، طوقتها الكعك، خنق من داخلها، يسمع صوتها:
_ أيعجبك أن ينتشوه من أيدي أطفال الحارة؟! يهجم على العلبة، يشعل سيجارة الأخيرة، يصل الهمس من خلف الباب و لم يناموا

بعد السحور، أوتار كمان تطوق عنه، ينفجر شريانه، تنظر من ثقب الباب، لقد شاهدته يتجه إلى الدولاب.

_ سمعته يذكر الكعك!

تمسك جديلتها، تنط الصغيرة صوب أخيها.

_ بعد عودته من صلاة الفجر، سيعطي أمي كي تشترى حوائج الكعك، وكسوة العيد.

يحاول أن يصرخ، ينادي كل الدنيا؛ ابنه خليل، جده إبراهيم، أباه إسماعيل ينبش القبور، يخرجهم، يشبعهم ضرباً، لكن الصور لم يسعفه، فقد غطى المؤذن لصلاة الصبح صوته.

يتزاغت الأولاد من أمام باب الغرفة، تقترب الخطوات، يخرج، تستقبله، ترد عليه التحية، تتراقص مراجيح العيد في عينيه، يهز رأسه، ينظر إلى وجهها، كأنه يشاهده للمرة الأولي، يتذكر الفستان، يسأل:

_ أين الأولاد؟! لقد سمعت همساتهم منذ لحظة، يشاهد ضوء المرحاض، باب الحمام مغلق و يعرف ملاذاتهم حين يقتحم الجنود البيت، يتذكر لبعة (شفتك) يكسر الجنود باب الدولاب الأوسط، يكشفون عورة الفستان، يعبثون بعفته.

يهزها بريق عينيه، يبدو أنه أبا خليل قد نام هادئاً الليلة الفائتة، توقعات الأولاد في مكانها إنهم شياطين يعرفون أحاسيس أبيهم، يقرأون عيونه، يتجه إلى الحمام، يتوضأ، يناديهم، يحسون بالدفء، يرى في عيونهم دخان الإطارات المطاطية، قضبان السجن، المستشفيات، صور الأجداد يأكلها العث، نظراته إليهم تترجمها الأم، تهمس في صدرها: إن يشاء الله بيصيروا رجال... وبتزوجهم في حياتك. ينظرون إليه، لا يتكلمون:

_ هل ستعطيها بعد عودتك كي...!

أصوات المكبرات تزيد من كآبة المعسكر، تلف المراجيح بالحزن، تكسر قوائمها باتت الليل تنعى الشهداء. يتنفس الصبح في عيونهم ويتأملونه كعكاً في انعكافة عصاه.

يتنحنح، يذوبون في البيت، يذكر الله كثيراً، يخرج يصل المسجد و بابه لا يبعد خطوات عن البيت، يشاهده أنواره تتحول مصابيحه إلى كعك محرابه، عمامة الإمام تتحول إلى كعك، يؤدى الصلاة، باب المسجد محاصر.

فوهات الجحيم تملأ المكان، العشرة الأواخر من رمضان عتق من النار، تتحول الفوهات إلى كعك، يرى أطفاله ينشونه من أيدى أطفال الحارة، تتشنج يداه، ينظر على العصا، تتحول في يده إلى سيفاً، رمحاً، رشاشاً، مدفعاً، صاروخاً، تتجمع الصور، ينجلي العث عنها، يتعملق خليل أمامه، يبتسم، يخرج الكعك من الفرن ساخناً ناراً، يقلب الأرض شلالات دم، يستحيل لون الأرض أخضر، يختلط عبق الكعك بزامرات سيارات الإسعاف؛ إلى الأمام يا قافلة الشهداء، يفتح عينيه، يزهو ليرى حشود المصلين، وطير الوردي مع أطفاله يلعون في قلب الصبح.

الوطن يودع أبناءه مكرهة

حاول التقاط أنفاسه و السيطرة على عواطفه، لكن عبثاً، تجاذبت الأذرع، تلاصقت الصدور، انصهرت الوجوه في الأعناق وأجهشت الأنفاس وسط بريق الدموع راحت الذكريات، الخواطر تبث صورها... حلوها، مرها، مرت بسنوات الدراسة، بأحلام المراهقة، بوجه الحبيبة، بفرحة النجاح بزغرودة الأم، بتبريكات الجيران، بعقد العمل في الخارج، توقف الشريط فجأة عند ذلك الصباح الذي غادر فيه صديقه الوطن يومها اخترقت زامرة السيارة اللولبية آذان الفجر، غطت على أصوات الديكة، غلف الندي أواخر شهر أغسطس، تساقطت قطراته من حواف قرميد بيوت المخيم المتهاوية، محدثة إيقاعات حزينة، ساعتها راح يتهيأ للسفر، عرس يتهيأ للزفة، انحنى نحو والده، تململ من تحت لحافه، حاول إخراج يده لكنها فقدت الحركة، أغمض عينيه، عاد لتلك الليلة، غاب قمرها، يداهم رجال المخابرات الشباب ليلاً، يسحبونهم من الرأس، لم يرجع الكثير منهم، يظلوا موقوفين دون محاكمة، تتكرر لائحة الاتهام، أيقظه آذان الفجر، هب يدافع عن ولده، منعهم من الوصول إليه، هد كاتم الصوت ذراعه، ماتت حركتها، مازالت السيارة ذات اللون الأحمر تقف على الشارع، يواصل جهاز التسجيل فيها بث أغنية فيروزية:

بعدوا الحبايب بيعدوا

بعدوا الحبايب

عاجبل عالي بيعدوا

والقلب دايب

مزقت نغماتها حواجز كبرياء النفس انهالت قبلات الوداع عليه، أشبعوه وصايا:

_ خلّى بالك من نفسك... الغربة بدها رجال.

_ قبل ما تعرف إيش قدامك... أعرف إيش وراك.

بدأ السائق الذي أدمن وداعات المسافرين بتحزيم الحقائب و حفظ التوصيات عن ظهر قلب، الأسئلة لديه جاهزة.

_ هل أحضرت الهوية؟!

_ هل التصاريح جاهزة؟!

_ إياك نسيان وثيقة السفر.

_ لا تنس تذاكر الطائرة.

جهاز التسجيل لا يزال يبث الأغنية:

وسألت باب الدّار

وبين الناس وأهل الدّار

قلى الهاجر غدّار

تركوا البيت طفيوا النار

كمن يصب الزيت على النار، ارتفعت حرارة الأجساد، تداخلت الكلمات، تآكلت أواخر حروفها: _كان الله في عونه، جهنم هناك في انتظاره، هذه النار التي قال عنها أحمد في إحدى رسائله لي، كنت قد أذعتها أمام رجال الحارة، يتخذون من دكانها مجلساً لهم: أنها قطعة من جهنم نجمع جمرها بأيدينا... إنها "روشتة" دواء الوالد، لوازم المدرسة، لقمة العيش، اللقمة التي راح جارنا أو ياسر يعانق الأرض وأكوام قطع الحديد فوق الطابق الخامس. ساعتها علق أحدهم: رحمة الله عليه" كان شهيداً للقمة العيش وطهارة النفس.

أما زلت تذكر العمال... ألا تكفيك الغربة يا أحمد... لكنك هكذا دائماً ابن المخيم.

وقف أحمد بالقرب من باب السيارة كزيتونة تحذرت حتي قاع الماء اقتربت من أخواته الصغار فعانقهن دفعة واحدة، كانت ذراعاه تحتضنهن كباقة زهر... ودّ لو حملها معه لتؤنسه الغربة، لكن قراءة العيون زادت من الالتصاق ببراءة الزهر.

_ ماذا يحدث؟!

_ إلى أين ذاهب؟!

_ هل ستعود قريباً؟!

_ ما سبب بكاء الأم؟!

تعلقت أصغرهن كقلادة بعنقه، كانت تمضغ حواف علبة دواء فارغة، لكن ازدادت تجذراً. مازال السائق يمسح زجاج السيارة على نغمات الفيروزية، اختلطت بأفق الضباب وعبق التراب المبلل بالندي:

دبلو زهور وبين

هالسجرات في طيرين

عم يسألو لوين

هالأصحاب راحو لوين

أمسكت نسوة الحارة بالأم، أنزلت صغيرتها، حاولت إخفاء دموعها، ودع الرجال الذين تحشرجت حناجرهم أحمد، مسحوا قطرات الندي عن جباههم، خانتهم الأيدي، انزلقت نحو العيون سرقت دموعها، يطارد النعاس أطفال الحارة، تحلقوا من حوله، مسكوا بتلابيب هندامه فركوا العيون.

_ لماذا يعانقه الرجال..؟! أعلنت السيارة عن المسير، هزت

زامرتها أركان المخيم، ظلت نافذتها مفتوحة، لوحت يده منها، بددت ضباب اغسطس كغمائر الحنطة غص صحن الدار بالمهنئين الذين نادوه. خلّى شويه لغيرك... ليظهر وجه محمود الذي انسلّ ببطء من وجه صديقه أحمد سائلاً:

_ أين الأولاد؟

فجاء جواب الجدة من بين أكواب الشراب.

_ مع الأولاد في الحارة.

بكّوك

وقف. أحرجها صوت مزلاج باب الجيران لم يوتره كثيراً، شد شريطيها، زاد من تثبيتها على الشعبة، جربها، غرزها بين اللحم والبنطال، لمح عيون أهل الحارة من ثقوب الأبواب، أقفاص الحسون والخضّر على كتفه، يتحدى منع التجول، يمارس هوايته، يلبى طلبات أهل الحارة، يأنسون به، ينادونه: "بكوك في خدمة الحارة".

_ تفضل هذه علبة السجائر. علبة الحليب في الكيس، شوال الدقيق، سيكون عندك بعد مغادرة الدورية.

أطل برأسه، سكون قاتل، لم ير أحداً، منع التجوال يخيم على المكان و رذاذ المطر بدأ ذكره بيوم ولادة أخته، داهمها المخاض، رفض ضابط الدورية وصول سيارة الإسعاف إليها. صرخات ترن في أزقة الحارة، استقبل التراب وليدها، تيبّس ثديها، لم يدر لبناً تحسس جيوبه، خشخشها، إنها ملأى، ابتسم، انطلق كالريح سمع هدير العربات، انزوى، التصق بالحائط، لامسه بنايت المدرسة، لم يرقع جرسها منذ ثلاثة أيام، أدار وجهه كمن يتبادل التحية، أو ماً برأسه الحائط، نظر للمدرسة اختلطت الصُّور، طغى اللون الأحمر على الجدار عبارات طرزته. دماء أطفال المدرسة لن...

وقف كمن في المحراب، خشع، انحنى، مرّ بيده على حجارته قبّلها، رجع خطوة، تمتم، كم كنت رائعاً أيها الحائط، انحنيت للأطفال، عبروك جعلت من جسدك درعاً لهم، كانوا يدافعون عن مدرستهم، لكنّ رصاص الرشاشات حطم عظمك، لاحقت أقدام البراعم، مزقت ظهورهم، تحسس ما بين اللحم و البنطال، إنها موجودة، خشخش

جيوبه، ابتسم مسح عينيه، خاطب الجدار من جديد.
_ لا تحزن لقد انعجنت دماء البراعم من جديد، عادت سواعد، لا أظنك نسيت غدواتهم، سمرهم، حلّ واجباتهم المدرسية، تحت ظلك لعبتهم (حامى بارد)
سعال الجار أيقظه من صلاته، أحس بالبرد، اندفع عبر الزقاق، السكون مخيف حركة العصافير تؤنسه، تستفزّه، يتابع طيرانها تحط على أطراف الأسطح، لا يقترب من الساحة، يخاطبها، الوقت غير مناسب، ينظر إلى السماء، يزداد المطر هطولاً، يختل توازنه، تغوص قدماه في وحل البركة، تتوسط الزقاق، تلقيه في وحل الليلة المعتمة، يشاهد قائد الدورية، ينتقي الشباب، يجلسهم وسط البركة القريبة من المزبلة، يوبخ "ختياريّة" الحارة، تحسس ما بين اللحم والبنطال، تفقد ما في الجيب، طار صوب الساحة مسمار حبل الغسيل مزق قميصه، أعاق اندفاعه، بصق عليه، عنفه ستجعلني عارياً، تفقد قميصه حيلة الشب... يارب دوت الانفجارات هزت الأزقة، ارتعد، التصق بالحائط، تطايرت بليات المعدن من حوله، خرجت من جلدها، انتشرت في الأزقة، وخزة المسمار. جمع معظمها، اودعها جيوبه، كانت تلعب لعبة"الحجلة"تفقد عينيه، إنها سليمة، عين الطفل لم تعد ترى المربع الثاني للعبة، تحسسها، إنها موجودة، استحضر كل حركات الطير، حيطة الدوري، خفة الصقر، حدة بصر النسر، ثقوب الأبواب مزدحمة بالعيون، نادته الهمسات.
كن حذراً، وإيّاك والوقوع.. لا يبعدون عنك كثيراً، انزوي، توحد مع الحائط، شاهدهم، كومة عند المزبلة، كان في وسطهم، عرفه، منع سيارة الإسعاف من نقل أخته، عيناه تراقب أزقة الحارة، بوجه

تحركات عساكره، مزق برشاشه أجساد البراعم، يصوتون فوهات رشاشاتهم للأزقة، توعد الشباب، سألقيكم في المزبلة، البنادق السوداء تراقب حتى العصافير، تذكر الغراب، خطف حسونه، أسقطه قبل أن يفترسه، تفقدها، الزاوية حرجة، أخرجها، فوهات الرشاشات مصوبة، ظنها قبالة عينيه، ترى مربع الحجلة، حرك رموشه، إنها سليمة، شد شريطيها، الطفلة لم يعد ترى مربع الحجلة، تحسس جيوبه و خشخشها، أخرج واحدة، أودعها الشديدة، زاد من دقة التصويب، صلابتها زادته صلابة، جعلها قبالة عينيه، اتسعت عين الطفلة، أصبحت تلسكوباً، قرب عين القائد اليمنى، أصبحت في زاوية الشعبة تجسد مربع الحجلة، شد شريطيها للخلف صرخات المخاض تدك رأسه، أطلقها، سال لبن الثدي، سمع مناغاة الوليد.

ندى الآذن

اخترق بصره الضباب، كل ما حوله سكون، إلاّ نحنحات من أيقظهم صوت المؤذن، لا وجود لأسراب العمال الذين أدمن خروجهم في تلك الساعة من الصباح، إنه الإغلاق، إغلاق كل الأشياء، حتى المضاجع أصبحت مغلقة، تُفتح الأعين، لكنّ الأجساد لا تتحرك، يشدها مغناطيس الكآبة، تبقى هامدة، عضلات تعودت الفتل والحركة، سابقت الفجر خروجاً، عاشت أحلام الأطفال، ابتساماتهم، تكشيراتهم، عاندت الصعب من أجلهم، كم اشتاقت للفراش، لكنها الآن تكرهـــه، عـــاد الفراش كأشواك الصبار يوخز الأجساد يقهرها.

تلفت حوله، ازداد حزنه، كان يودّ العودة، إنه الوحيد من بينهم، أزقة المعسكر أصبحت غريبة عنه، إلاّ أن قطرات الندى التي تمتص الشارع العام وأضواء السيارات تجسدت أفواها، عيوناً، أطفالاً من أمامه، جعلته يتحسس التصريح في جيبه، ودّ لو يمزقه، يحرقه، يلقيه في مجارى المدينة المناسبة، لكن خشخشت "الشاكوش"و "الميزان" في السلة أعلنت بأنّ الوقت قد حان للانطلاق.

سحبه الندى الذي يزداد هبوطاً من قمة مئذنة الجامع حتى الميدان وسط زامرات السيارات اللاتي يحمن في الشوارع كما الجائع يبحث عن كسرة جبز، نظر إلى المئذنة تأملها، سهم بتسلقها، نادته أصوات السيارات (رخوبت..ريشن... تل أبيب)، لم يسمعها تعلق بصره بالمئذنة، هلله الصعود، هلالها، نجمة القمة، انحنت القمة أمام السهم، غرس عليها الألوان، توجه الهلال، شقت النجمة عن

قلبها، انقشع الضباب أمام الألوان.
اشتعلت أنوار المئذنة، ازدادت الألوان وضوحاً، أضيئت عيون الأطفال بفرح غامر، انتشرت ابتساماتهم في كل الأزقة، هبط بقناعه من على المئذنة، برقت عيناه كما النجم، وصل الأرض أعلاماً، ذكره بنجمه الخاص، بحبيبه، فلذة كبده الذي بذر الأرض صخباً، وزين السماء ألوان، اقتنصته فوهات الحقد، يمضى في السماء يتناسخ من جديد، تجاذبته الألوان، الأعلام التي انزرعت على أسفلت الطريق، التقط أحدها، ألوانه عاودته ليوم زفة حبيبه، خبأه، لف الندى كل الأشياء، تحسس (الشاكوش والميزان) لكن الخشب هناك، نادته الأصوات من جديد (ريشن... رخوبت... تل أبيب) تجمعت الألوان والمئذنة في صدره، ضمه كرسي السيارة الخلفي إلى حيث ألواح الخشب ورصات الإسمنت، الحديد والطابق الخامس الذي أوشك على الانتهاء، لو لا إغلاق باب العمل في وجه العمال.
دار حول المبنى، تراءت له المئذنة، نظر إلى رصات الإسمنت، نادته اللكنة الغربية (مش أنا خبيبك؟! مش أول تصريح كان لك).
تقزم، تصلب، انجدل كما القضبان ولعن اليوم الذي أرسل فيه التصريح، تفحص الأرض، بصمات أقدام رفاق العمل مازالت، ألواح الخشب تغطيها، تكاثف الندى عليها، أصبح جدولاً يغذيها، اختلط بعرقهم، رائحتهم تعشش في خلاياه:
_ أين هم الآن؟!
حامت الأصوات بذاكرته، ترددت من كل حدب، من الأفق، من الشمس، من الخشب.
_ (أعطني لوحاً بطول أربعة أمتار، ثبت السقالة، ابتعد عن الحواف،

أشعل لي سيجارة، تعلوا للإفطار، انتهت من عمل السَّلطة).
طوقته، جعلة على شفير البكاء، طوق الألواح، تسعة أمتار كان أطوالها، رفرف العلم على قمة المئذنة.
ابتسم، ازدادت الألواح طولاً، قبل بصمات أقدامهم ناغته الرضيعة، أصبحت الألواح سارية، تحرك ما في الصدر، ظهر هلال المئذنة، لمع القناع وسط الظهيرة تألقت النجمة، ارتفع الطابق الخامس، وصل المائة مرت الغيوم بيضاء، برق النجم من جديد، خاطبته اللكنة الغربية (دير بالك على التصريخ).
استيقظت عيون العمال، دبت الحياة في الأجساد، ارتفعت السارية، غازلت النجمة، عاودت اللكنة الغربية المناداة: (إياك والحواف... أنا مش بدفع تأمين)، تمتم:
ما أروعها اليوم من حواف !! جاء حبيبه فلذة كبده، ولدت المجرة مجرة أخرى، اتسعت أزقة المعسكر، دقت الأخشاب بعضها بعضاً، انهمرت صرخات رب العمل (انزل.. شو أنت بتسوى، أنت مجنون...) اخترقت السارية الغيم الأبيض، جنت التحذيرات، برزت فوهات الحقد صوبت نحو السارية، انعجنت أنفاس العمال، ثبتتها، انشق الصدر، اندلقت الألوان، توحدت امتزجت بعيون الرضيعة، حلقت معها، توالت الشتائم، لكن الطابق المائة وقمة المئذنة أجهزت عليها، فتراقصت الألوان مرفرفة مع الرياح التي ارتفعت بكل الألواح المندفقة وسط مرأى ابتسامات فلذة كبده إلى وجه المجرة الوليد.

المجموعة القصصية

(الثالثة)

الغـــــــروب المشـــــــرق

2003م

لا بد من المحاولة الثالثة

يودع الشارع بقايا الشمس، يكتمل اكتساء الشجر، تنغمس أطرافه في لون البرتقال، تقف رفوف الدوري على أطراف أغصانه، تتلون بلون المغيب، لم يهبط بعد، تتمسح جذوع الأشجار الممتدة بطول الشارع بأهداب اللون، تسبح في مرجانية عروقه، تتوسط الشارع، تشطره الى شطرين، تعبره السيارات مسرعة، تتجه شرقاً وغرباً، يكتظ بعربات الكارو، تسابق آذان المغرب، دخول منع التجول، تعود من البساتين القريبة، محملة بصناديق الخضرة، بالفواكه، تحتل خيوط الشمس الربع الأخير من شرفتي، ترتطم العربات ببعضها، يضحك الفلاحون من فوقها، تهتز الصناديق، تطفح بالثمر، تسقط حباته على الأسفلت تتزاحم مناقير الدوري عليها، تنقر الحبات، تملأ الأمهات حوصلاتها، تطير بها، تدخل كما الشهب عب الأشجار، تدفن نفسها داخل الأعشاش، تزغرد الصغار، تحرس الذكور بقايا الحبات، تظل إحدى الإناث بعيدة، لا تنق لا تطير، بقيت وسط العشب، ينبت حول الجذوع، تطارد آخر أذرع الشمس، يتلولب بين الجذوع، بين الغصون، بين رموش العشب، يخترقها، يتمدد ذراع الشمس على أسفلت الشارع، تطير خلفه، تلاحقه من شبر إلى شبر، تلامس وجهه، تحط عليه، لا تعبأ بالزامرات، بصراع العربات، بنقر الحبات، تعود للعشب، تغتسل بتلابيبه يمر ذراع الشمس من فوقه، تتنشف ببرتقالية خيوطه، تمتزج بلون الأرجوان، تُطلق زغردة خاصة، يسمعها، لا يحرس الحبات، يراها، تجذبه الزقزقة، يلحق بها، تنتفض من بقايا رطوبة العشب، تطير صوب ذراع الشمس، ينسحب من الشارع رويداً،

تحط على أواخره، يبادلها الزقزقة، تتراقص من أمامه، تدب الرجولة في أوصاله، يهبط على ظهرها، يستكين ريشها، تطارد الزامرات العشق، تقف العربات العسكرية على رأس الشارع، تنتظر دخول الغروب، تسجن، تضرب، تغرم كل من يتأخر عن الموعد، ترتجف فحولته، يخشى الموت، يغادرها، لم تشعر بدفء النصف السفلي منها، ترفرف في المكان، لا ترتفع بأكثر من قامتها، تشعر بأن طيب العشب لم يتغلغل في ريشها، تصل العشب، تغتسل بتلابيبه، تتهيأ من جديد، تطلق زقزقتها الخاصة، تنزف عشقاً، يبادلها الزقزقة، تلاحق ذراع الشمس، تحط على أطرافه، يعود إليها، أعود لعشرين عاماً مضت، أجلس في نفس الشرفة، يخرج أبى من غرفته، يسألني:

- ماذا تفعل هنا..؟!

- انتظرها.

يزفر، يهز رأسه، يحس بي، أحس به، أتأمل نظراته، تراقب الشارع، ينتظر عودتها، يتوحد شوقنا، تأخرت عن موعدها، يُسيء عسكر الدورية للمتأخرين عن عودتهم، يعتقلونهم، يُغرمونهم، منذ أسبوع وجدى بعافية، يلمح حيرتي، شجني، يتمتم:

- ليتك رافقتها.

يحول دفة حديثه، يذكرني بموعد الشهادات:

- غداً سيكون توزيع الشهادات، أرفع رأسي، لا يتعدى سور الشرفة، سأترفع إلى الصف الثالث بعد يوم، ستفرح كثيراً بدرجاتي، يقول لي:

- لن تطول غيبتها، ستأتي قبل دخول منع التجول، قبل توزيع الشهادات.

أتذكر غداً، أسمع الزقزقة، تطغى على صوت الزامرات، على

دوى المحركات، على تلاطم عربات الكارو، يصتك خشبها ببعضه البعض، تتسابق حميرها في وسط الشارع، الكل يهرع للبيت، يصلها، تهز ذيلها، تلمح أمهات الفراخ تنقر الحبات، ترفعه، تراقصه، تزغرد أطراف الأغصان، يعتلى ظهرها، يحتدم صراع الكوابح، يكره الناس الاعتقال، لم يُنشّف ذراع الشمس بقايا الاغتسال، ظلت رطوبة تلابيب العشب عالقة بالريش، يخاف اصطكاك الكوابح، تحس ببرودة دفئه، تخاف عليه، تحاول أن تحمله، تطير به، تحس بثقله، تتطاير بعض الرصاصات، ينكمش ذراع الشمس، يضمر ريشه، يغادرها، يملأ الدنيا صخباً، تندلق حبات الثمر، تنقرها أمهات الدوري، تطير بها صوب الأعشاش، تشاهدها العصفورة العذراء، يأكلها الشوق، لا بد من المحاولة الثالثة، يتحول الفضاء إلى زقزقة، تتلامس الأجنحة، تصر على نفس المكان، تسبقه إليه، تحط على آخر شبر من ذراع الشمس، تتمايل أنامل الأغصان، يزداد لون الأرجوان توغلاً، تشتد زغردتها، تزداد معركة الكوابح اشتعالاً، تصوب الدورية فوهات بنادقها نحو الأشجار، تخاف الفراخ، تنادى أمهاته، يبزغ رأس أمي، تتربع السلة عليه، تقف على الناصية المقابلة للشرفة، يجذبه ذراع الشمس، يطير صوبها، تعيق المعركة وصوله، يرتفع حتى العنان، تُنزل السلة عن رأسها، تتهيأ للعبور، تنظر صوب الشرفة يأكلني الحنين، تتصارع العربات، تعبر الخطوة الأولى، الثانية، يستعر هوس السرعة، تحتدم معركة الكوابح، تسابق ثواني المغيب سرعة صوتي، تستعد فوهات البنادق، يتدلى نصف جسدي، يلتقطني سور الشرفة، لا يزيد عن المتر، حاولي عبور الشارع بسرعة، تصخب الزقزقة، يقتل صوت الرصاص موسيقى الزقزقة، يذّوبُ صوتي، يلهب الشوق العصفور العاشق، يود لو يجمع قش العش مع الحبيبة،

ينزل عليها كما السهم، تراوغه، تهتز الصناديق، تسقط الحبات، تلتقطها الأمهات، تطير بها، تغطس في عب الأشجار، تشاهدها، يشدها الحنين، تطارد الهواء، تتوسد الثانية الأخيرة من ذراع الشمس، ترقد، تنتظر هبوط العشق، لا بد من المحاولة الثالثة، لا بد من الخطوة الثالثة، تحرق الرصاصات أنامل الأغصان، تنحت أسفلت الشارع، تسحب الدورية السائقين، تعصب عيونهم، تكبل أيدهم، يحط على ظهرها، تعبر أمي الخطوة الثالثة، تنخلع جذور الأشجار، يدوى الصراخ في الأرجاء، تنفجر الشرفة، لا ترفع ذيلها، يحس ببرودة الريش، تخترق الرصاصة رأسها، لا تكتمل الخطوة الثالثة، تسقط، تنهرس عظام السلة، يهرب ذراع الشمس، تحجم أمهات الدوري عن التقاط الحبات، يلتصق الريش بالإسفلت، لم تر درجاتي، يحتل اللون الأسود الأرض، يحاول للمرة الثالثة، فقدت الأرض الدفء، يحلق في الفضاء.

شهادة الصف السادس

لم يتعدّ الصباح ساعته السادسة، يُفسد هدير العربة هدأته، تطلق لزامرتها العنان، توتر طلوع الشمس، يزيد من إصفرار وجنتيها، أتخلص من نعاس، تقترب الزامرة من باب الحوش، أخرج من الغرفة، يرتعد ريش الحمام الأبيض، يترك صحن الدار، يمر بصريف الصبار، يمتد بطول الحوش، كأنها المرة الأولى، أنظر إليه، بدأت حباته تضمر، تسكن عشة الطيور عند آخره، أملأ الجرادل بالشعير والماء، تشرف العشة على المقثاة، يحط الحمامُ على مزاريب البيت، يتدلى رفراف السعف من طينه، يودع الصيف أواخره، يمتص عُصاراته، تنعق الزامرة، يترك الحمام المزاريب، يحط على سعف العشة، أقف ببابها، تتقافز الديكة فوق ظهور إناثها، تنزل عنها، تنتصب بجوارها، تنفش ريشها، تُبعد عنها الخوف، تصيح مؤذنة، تفلفل الإناث ريشها، يصبح مراوحاً، تأخذ حماماً رملياً، ترقرق لصغارها، تناديها تنبش الأرض من أمامها، تترك خطوطاً متعرجة، تلتقط الصغار الحبوب من وسطها، تتقافز فوق ظهور بعضها، تقلد الديكة، أتأمل العشة، يثقل جردل العلف في يدى، يطوحني جردل الماء يرجع أواخر الصيف، يحط بي عند سن الرابعة عشرة، ألمحه، يخرج من جوف العشة، يناديني، يقترب منى، يجذبني، يحمل في يده بيضة، يلقيني في أحضانه، يهمس في أذني: لقد سقطت لتوها من مؤخرة الدجاجة.أحُسها، ما زالت ساخنة، نضحك. تطارد الزامرة الحمام الأبيض، يترك سعف العشة، يدب الاضطراب في جوفها، يحوم الحمام في الفضاء، أنظر وعاء شراب الطيور، أحسبه غديراً، يرفرف ذيل التنورة على الأرض، تنقره الصغار، أرفعه، أجلس القرفصاء، يطفح

الوعاء بنظراته، أُشاهد بريق عينيه، أُعاتبه:
ــ لماذا تأخرتَ عن موعدكَ؟! ألم تقل لي بأنك تهوى المقثاة ومن فيها..؟!
ألم تتغزل كما الشعراء بها، باستدارة ثمرها، بألوانها بشهد مذاقها.
يخرجُ من الوعاء، يمسك عوداً، ينظر إلى قرفصائي، يحسبني دجاجة، ينبش الأرض من أمامي، تحمر وجنتاه، أُذناه، يُهرِّب عينيه، تراوح زاوية القرفصاء الأربعين درجة، تعلمت في المدرسة رسم الزوايا، مزقت زوجة أبى شهادة الصف السادس، أصبحت مهمتي رعاية العشة، جمع ثمر المقثاة، غسل الأوعية، أُتابع نظراته، لم يطل غيابهما، عاودتني، سقطت على زاوية قرفصائي، تقفز الديكة فوق ظهور إناثها، تنزل عنها، تنفش ريشها، تأخذ الإناث حماماً رملياً، أعفر الرمل على رأسي، رجعت من المدرسة فرح، تكاد قدماي تطير عن الأرض، لقد باركت لي المعلمة مرتبتي الأولى، سلمتني المديرة الجائزة، صفقت لي الزميلات، قابلتني عند باب الحوش، ناولتها الشهادة، نظرت إليها، قلبت شفتيها، نسيت أنها لا تقرأ ولا تكتب، تزوجها أبى بعد وفاة أمي، كنت ابنة الخامسة، قالت لي:
- هذه الشهادة الأخيرة التي تحصلين عليها، لقد أصبحتِ صبية، لن يخفى مريول المدرسة صدركِ، لقد ثقلت مسئولية البيت، لا بد من مساعدتي، لا تغرّنكِ درجاتك، نهايتك للعشة.
نتشت شهادتي، خبأتها وراء ظهري، بين المريول وصدري، شدّتني، انفلتت ضفيرتي، صرختُ، رجوتُ، نزعت الشهادة منى، تناثرت قصاصاتها، طارت كما الحمام الأبيض في الهواء، لحقت بآخر قصاصة منها، المرتبة الأولى، مع تمنياتي لك بدوام التقدم والنجاح، يصيبني الوجوم، تنقر الصغار التنورة، أعود إليه، أنظر

وجهه، يتفحص وجهى، تصيبني الدهشة، تلتقى عيوننا في زاوية قائمة، أحسُّ بسخونة زفيره، لا أقوى على السؤال، تعودت على سؤال المعلمة، لقد مزقت زوجة أبى شهادة الصف السادس، أسأله في داخلي، ماذا دهاك؟!، لماذا تغير لون وجهك..؟ !، سخن زفيرك؟! يحرك الأرض بعوده، ينبشها، يترك فيها خطوطاً متعرجة، أنظر الخطوط، ألمح حبوب الشعير، أحسب نفسى دجاجة، أتحسس جسدي، لا أجد ريشاً، لم آخذ حماماً رملياً، يكبرني بعامين، يغمق لون الزغب في وجهه، تعودت على زيارته، يأتي مع عمتي، تأتى مع بواكير الصيف، ابنها الأصغر، نسقى طيور العشة معاً، نَلمُ بيضها، نطعم زغاليل الحمام الأبيض، نجمع ثمار المقثاة يسألني: لماذا مزقت زوجة خالي شهادة الصف السادس، يحمر وجهى، تنغلق أهدابي، يتسع انفراج زاويتي، يقترب منى، يجلس قبالتي، تصفق أجنحة الدجاج، تتطاير تقفز فوق القن، يتسع جوفه، تتلامس ركبتانا، تقف الديكة من أمام إناثها، تغار عليها، توشك الزاويتان على الانطباق، تحجب الديكة رؤية الإناث، تشعر الصغار بسخونة العشة، تهرب للزوايا، أحنى رأسي صوب الأرض، ألمح زاويتي، يلونها البطيخ الموشك على النضوج بلونه، لم تستر التنورة الحمراء اللون، ألبستها لي مع قدوم عمتي، لم ترتفع يدى، ظلت زاوية القرفصاء مكشوفة، يفور وجهى، وصل اللون البطيخي حتى مرفأ زاويتي، يعشق أهل المدن القثاء، تتصلب عيناه، تلف خيوط المغيب العشة، يجذبه القمر، استدارة الثمر، يكسو الزعب الأصفر جسدي، يخفق قلبي، نذرع المقثاة، يرجع الحمام الأبيض للمزاريب، تعلن اللعبة عن اسمها، يغمض عينيه، تصفق يدى (طرقت ملح الصيادة)، أعرف المسارب، تعرفني، أطير من أمامه، أفر صوب الدائرة، يلحق بي، أنتشها، تفلت التنورة الحمراء من يديه، يعض

يده، يخفت ضوء القمر، تزل قدمي، تعترض ثمار الشمام المسرب، أتعثر، أقع، تهتز الأرض من تحتي، تغادر التنورة الحمراء نصفى، تصل وجهى، يرتعد جسدي، أشعر بقفز الديكة من فوقى، تعرق ثمار الشمام من حولي، يغادر القمر الغيمة، ينتشر، تنزل الديكة عن إناثها، يبتل لون البطيخ بلزوجة العرق، أمسحه، تنتصب الديكة بجوار إناثها، تعلق اللزوجة بأطراف أصابعي، تنفش الديكة ريشها، يرفرف قلبي، يكسو الريش جسدي، ألمح حبوب الشعير من أمامي، أقترب منها، ألتقطها، تصفق يداه،(طرقت ملح الصيادة) يراوغني، أعرف المكان، داخل العشة، ألحق به، أقف ببابها، تنقر الصغار ذيل التنورة، يخرج من جوفها، يحمل في يده بيضة، يناديني، يجذبني، يهمس في أذني:

- لقد سقطت لتوها.

أحُسها، مازالت ساخنة تنعق الزامرة، تنقر الصغار ذيل التنورة، تتلاطم الأصوات في رأسي، صوت المعلمة، تبارك لي المرتبة الأولى، صوت المديرة ينادى اسمى، صوته يسألني:

لماذا مزقت زوجة أبيكِ شهادة الصف السادس؟! يناديني صوتها، تخرج الصغار من الزاوية، يوشك الصيف الثالث والعشرون على الانتهاء، أنظر أوعية العلف، أوعية والماء، تطفح بوجهه، تنقر الفراخ ذيل التنورة، ما زالت فارغة، أدلق ما أحمله، أهرع إليها، تشير لي صوب باب الحوش، يتوسط صريف الصبار، تَذبلُ حباته، أفتح الباب ألمح صورته، تقف السيارة بالقرب منه، بلون السواد لونها، يترجل سائقها، يسأل عن بيتنا، أهز رأسي، يتقدم نحوى، يلهث نفسى، تثقل خطواتي، يمد يده، يناولني بطاقة دعوة.

الحافلة
– 53 –

كدتُ أن أهربَ من نافذة الفصل، انتظرت انتهاء الحصة الأخيرة بفارغ الصبر، نسيتُ أن أُودع الزملاء، غداً تبدأ العطلة الصيفية، (اللى بعيش بيشوف صاحبه)، أركض، ألهث، أخاف أن تفوتني، أُسرع الخُطى، أصل الموقف، يتحرك الأتوبيس ببطء، يغادر الموقف، يجرف المتأخرين من الزملاء، يلتقطني بابه، أرد التحية، تذوبُ مع محركه، مع حديث الزملاء، أدلفُ لداخله، أتمايل مع تمايله، تسندني ظهور المقاعد، أبحث عنها، ألمحها، تناديني بعينيها، حجزتُ لك مِقعداً، تتزحزح قليلاً للداخل، أندلق بجوارها، يستكين لهاثي، يلمس ذراعي صدرها، أهتز، لم أرها في الّصباح، تأخرتُ عن موعد قيام الأتوبيس، تسألني:

- لماذا تأخرت هذا الصباح عن موعدكَ..؟! تميل برأسها، ينخنق صوتها:

- لو لم تأتِ اليوم لخسفتُ بكَ الأرض.

تميل معظم الرؤوس على بعضها، تزغزغني كلماتها، أتمنى لو أخطفها، تخطفني، نفر حتى آخر الدنيا، أنظر إليها، أمرق بحر وجهها، أتفقده كما الناطور، رشم البستان على مكانه، ينتشر زغب الوجه على رابيته، تنزلق خصلة السالف أسفل الأذن، يعلو القميص الأبيض التنورة السوداء، تخفى التنورة ما تحتها، تتابعُ نظراتي، تخاطبني:

- كاد الأتوبيس أن يفوتك، لولا أن دعوت لك، لعل الأمر خيراً.

- لقد طال وداع الزملاء، نادوني قبل خروجي من الباب بخطوات، قالوا لي:
- ألا تريد وداعنا..؟!، كل عام وأنت طيب، غداً ستبدأ الإجازة، تأتينا إن شاء الله وأنتَ عريس، إياك أن تنسى دعوتنا، نتمنى لك عروساً جميلة.
تضغط على قدمي، أنظر لعينيها، تبتسم، أبلع ريقي، يكاد أن يجف، يَسخنُ وجهى أخاف السؤال، الجواب، تمسكُ بيدي، أمسك بيدها، نُخفيهما، نغرسها بين ساقينا، تغوص الأصابع في بعضها، تضغط الساقان علي الأصابع، تعرق.
- غداً تبدأ العطلة الصيفية.
ترد بدلال:
- كل عام وأنتَ بخير.
- ليس هذا هو المطلوب.
- إلى أين وصلت الأمور؟
تغمض عينيها، يلد صدرها تنهيدات ساخنة، أقرأ الوجه، أعبر عبابه، يتغير اتجاه البوصلة، على ما يبدو ليست الأمور على ما يرام، أنا لست ابن العم، ولا من الأقارب، مُحرّم علىّ حبُ الغريبات، الزواج منهن، يصلني همسها:
- لكن أمي تجابه الموقف، ما زال أخي الأكبر في الخارج، تعرف أن أبى قد مات منذ زمن بعيد، هيمنوا علينا، أخذوا أختي، زوجوها مكرهة لواحد من أبناء عمومتي، لم تكن أمي راضية.
ألمح الأشجار تجرى، أغمضُ عيني، تضغط على أصابعي:
- ليس هذا سر المعارضة.
- اذاً ماذا؟!

تحمر وجنتاها، تزداد التنورة سواداً، يتلألأ مرفأ العين، تمسحه بطرف سبابتها، تغرقُ أصابعنا في بعضها، تعرق، تسرحُ، تحلقُ بعيداً، يرجع الشجر إلى الوراء، ألكزها، أردها، ترتجف، يصفُر لونها، تستحضر صوراً، تكاد أن تتشنج، تنجرح أحبال الصوتية:

- لقد حاول معي أكثر من مرة، كُنتُ أظنه يلاطفني، أحسست في المرة الأخيرة بالذعر، كنت أزورها، لم تكن في البيت، كادت نظراته أن تقضمني، تَنصبُ على صدري، تساءلتُ كثيراً:

- هل أُعجب بالقميص؟! أتفقده، انفلت زّره العلوى، تخرجُ عيناهُ من مآقيها، تنهشُني، لم أجرؤ على إعادة الّزر إلى مكانه، حاولت مغادرة البيت، تَحججتُ، أمسكَ بيدي، ارتعدتُ، جرّني إلى الغرفة، يتوسطها السرير، تنتثر ملابس أختي الداخلية عليه، أخجلُ، ترتفع المرآة لأكثر من نصف الحائط، تعكس أدوات زينتها، لم يمض على زواجه منها أكثر من عامين، ضغطني إلى صدره، انعجن صدري، صرختُ، فلتُ من يديه، انفك الّزر الثاني، قال لي:

- لم أكن أرغب في الزواج منها، كنتُ أُحبكِ أنتِ، لكنكِ كُنتِ تواصلينَ تعليمكِ.

هددته بإبلاغ الأهل، ما زال نصف الباب مفتوحاً، الّزر الثاني مفتوحاً، سال لعابه، قذفني على السرير، صرخت صورة أختي، معلقة فوق السرير، بصقتُ في وجهه، أمسكَ بشعرى، لستُ أجمل منها، أحسست بدوار، كدت أسقط على الأرض، يتمزق نهدى بين يديه، قذفتهُ بملابسها، عَلِقت في وجهه، أعمته، لهث ورائي، ما زال نصف الباب مفتوحاً، لطمه، صرخ، هددني: لن تتزوجي ما دمتُ حيّاً.

لم أدر كيف وصلتُ إلى البيت، وفى أية حالة كنتُ، تطاردني

صورته، يسرى تهديده في كما السمُ، تفقدت نفسى، ابنة الثالثة والعشرين ما زلتُ. اغرورقت عيناها، تحشرج صوتها:
- أصبح هو المعارض الوحيد.
أحسستُ بأن الأتوبيس يتشقلب، يضغط اختناقُ على صدري، تتلبسني كل الكوابيس، عصرتُ وجهى، اكتشفت خطأ مُصارحتها لي، اتسع فراغ ساقينا، ترخرخ انضغاط أصابعنا، ينهزمُ العام الخامس، تأتيني صورة أمي، تسمع صوت الأعراس، تدب في أرجاء المخيم، تعقد وربتها حول رأسها، تجعلُ العقدة إلى الأمام، تجلس بيننا، تبكى أمام نسوة الحارة: يعرضُ ولدى عن الزواج.
يُهدئنَ من روعها:
- بدك تتحملي شوية، بيظل شباب طايش، خليه زي الحمام العشاق تياخذ عوزته بيرجع لحاله.
أسمعهن لم يَعرفنَ الحقيقة، تكتشفُ شرودي، تضغطُ على أصابعي، تعرق من جديد، أتفقدُ رشم الوجه، ما زال بكراً، تواصل الحديث:
- لكنى لك.
تُكررها، أصرخ في داخلي، يرد:
- ماذا تنتظر..؟!، أنتما لبعضكما، أسرق منها
الصدر، النهدان، تنفك زرائر القميص الأبيض، أغمض عيّني، تهتز التنورة السوداء، ألمح ثوب العرس، ترقص الملابس الداخلية، تسقط عنها، يخفت ضوء المصباح، تلعلع الزغاريد، أصحو، أتذكر السنوات الخمس، عُذريتها، نواميس البلد، تمر الصور، رسائل، عتاب، آهات، توجع، أحلام بحجم الكون، تتجسد الصور، نناغى الأطفال، يرقصون في ضلوعنا، تتسلل يدى، تغفو الرموش على الوجنين، تلسعني حرارة التنورة، أصحو، لا، لن ألوث الزغب،

لماذا تهربُ؟!، لن أسرق الرمان، سأتركُ شوكِكِ يُدميني، سأنتظركِ، ستأتين بثوب العرس الأبيض، سيقاوم حُبنا الوعيد، التهديد.
تحس بلهيبي، يغلو شجني، تَضغطُ على قدمي، ترجع الأشجار إلى الوراء، تغوصُ الأصابع في بعضها، تعرق، ستكون لي وحدى، لن أتركَكِ تمازح الأخريات، سأحتفظ بالقميص الأبيض.
أبتسم، أفرح، يرجعُ الشجر إلى الوراء، تنزل الرحلة الى شاطئ البحر، نمشى صوب الشمس، ندخل الأفق، يتطاير شعر السالف، أُرتبهُ من جديد، يبرقُ زغب الوجه، أخاف عليه طيفُ الأفق، أحس بالجوع، تهب لنجدتي، نضحك طويلاً، يتحول (البولوبيف) إلى فلفل، أقذف بالعلبة إلى الموج، تدفعني خلفها، ترن ضحكتها، تبتسم الشمس، تميل من خد المغيب، يَرشحُ البنطال ماءً، تعصرهُ.
يطول شرودي، تضغط على قدمي، تغوص أصابعنا في بعضها، تعرق، نلتصق، أسمع همسها:
- لكنى لكَ.
ترجع الأشجار إلى الوراء.
- وأنا كذلك، لكنى لست ابن العم، أو أحد الأقارب، سنقاوم كل التفاهات، المهم أنكَ تُحبني.
- لن أتركَكِ تمازح الأخريات، سأحتفظ بالقميص الأبيض، يَختلُ توازني، كاد نهدى أن يخرج من صدري، ينشطر بين يديه، تصلُ حرارتي حد الغليان، لن تتزوجي ما دمت حياً، أحس بالأتوبيس يتشقلب في الهواء، يتوقف، أتحسس المقعد بجواري، أجد فراغاً، أنزل، يغُصُ الشارع بالمارّة، يمتلئ بأصوات الباعة، بالمحال، تُعلق القمصان البيضاء، أقرأ اليافطة في مؤخرة الأتوبيس، أجدها تحمل رقم (53)

العشق لا يعترف

يصل أُذني، يعلو نباح الكلاب، أُخرجُ رأسي، تُغرى بواكير الصيف بالمبيت في حوش الدار، يبلل الندى اللحاف، تنكمش القدمان، ما زالت نجمات الفجر تبرق، يغزو اللون الفضي الفضاء، يهزه هدير العربات العسكرية، يتوزع نباح الكلاب، ينتشر في الأرجاء، رفع نصفه العلوى، لا تبُعدُ عنه كثيراً، تَنصّبُ كشافات العربات نحوها، يلمع السلك الحديدي، بدأ العمل في توسيعها، يجرى على قدم وساق، على ما يبدو أن الأمر تعدى الأوامر العسكرية، تعدى سلكها الشائك الأشجار الحرجية، تتجمع الكلاب تحتها نهاراً، أصبحت بيوتها، تتزاوج في ظلها، تربى صغارها، صار السلك المكهرب على بُعد أمتار من بيوت الصفيح والسعف، منعوا أصحابها من البناء، قالوا لدواعي أمنية، كانت الليلة الفائتة آخر مرحلة في تركيب السلك الشائك، اقتلعت الجرافات الأشجار الحرجية، أكلت شفرها الجذور، هرست عظام الجراء الخدج، لم تر عيونها النور بعد، دمرت مراقد الكلاب، شتتت جراءها، لم تكن إناث الكلاب وذكورها قد عادت إلى مراقدها بعد، ظل معظمها خارج السلك، ظلت الجراء داخله، حامت الجراء في العراء، تصطدم بالسلك، تسعى الكلاب معظم الليل، تعود فجراً، شده الفجر، عويل الجراء، عواء الكلاب، يقذف باللحاف جانباً، ينتصب وسط الحوش، يخترق بصره الضباب، لم يكُ كثيفاً، يحول السلك بين الأمهات وصغارها، تنبح تنجرح حناجرها، تجرى الجراء قبالتها، كرات صغيرة تتدحرج، تذكَّر كيف وضع المستوطنون السلك الأول، كيف منعه من الوصول إلى

شاطئ البحر، منعه من صيد عصفور:
(الحمري واللامي والسُرَّج و الكركز)، تذكر طريقة نصب الفخاخ، يُجرى عليها صيانة مع كل ربيع، ينظر صوب الغرب، لم يَعُد يرى البحر، غطته مباني المستوطنة، لم يَعُد يجلب لأمه الحطب، أصبح رعى قطيع الغنم عبء عليه، لم يَعُد يستمتع بظل الأشجار في القيلولة، تقترب الأمهات من السلك كما المصروعة، يرجها، يقفز سور الحوش، ينسدل شال الضباب من السماء حتى الأرض، يتجه غرباً، يلفه الشال، تَشمُ الكلاب رائحته، تحس بحركته، تهجم على السلك، تدكه، تهزه، تعضه، يُدمى أنيابها، تحاول تسلقه، يَرُجّها، تتراجع، يظل أحدها، يفصل السلك بينه وبين أنثاه، تجرى الصغار في ذيلها، تتعلق بالسلك، يُجن جنونه، يكتشف قواعده، ينبشها، يصبح كتلة فضية، يصل السلك، يتمدد، يصبح بطوله، يزحف، تقترب الأنثى من ذكرها، تتوحد الكلاب، تنبش قواعده، يُطلق السلك صافرات انذاره، تهربُ، تشم رائحته، تحس بحركته، تعودُ، تنبشُ، تطيرُ عربات الجيب صوبها، يعلو الغبار يعكر اللون الفضي، يزحفُ، يقفزُ، يزرعُ، يقصُ، يغزو اللون الذهبي الفجر، يقترب الصباح، تصعد خيوطه كما السهام في الأفق الشرقي، يحاصر الجنود الكلب، يدك السلك، ينبش قواعده، تقترب الجراء من أثداء أمهاتها، تود الرضاعة، ترفض الأم، ترفسها، تَهزُ السلك، تنبش قواعده، تصل القواعد، تحركها، تقوضه، يعلو صوت الإنذار، يشاهد بقايا الأظلاف، هرستها شفر الجرافات، يزحف أكثر، يقفز أكثر، يزرع أكثر، يقص أكثر، تتضح بعض معالم الكتلة، تتحرك، تنطلق الكلاب بسرعة الريح صوب الكلب ووليفته، تعض السلك، تنبش قواعده، تبزغ الشمس، تلمع قضبان الحديد، بدأ يختل، يقترب

عسكر الدورية منها، تزحف الكلاب من أمام العسكر، تكشر عن أنيابها، تمنعهم من وصولهما، يطغى صوت اللهاث على صوت العربات، يصوب الجنود بنادقهم نحوها، يعلو صوت النباح، تكبرُ الأنيابَ، تصبحُ كما السهام، لا يأبهان بالبنادق، يفصل السلك بينهما، تسمح فتحاته تتلاقي الألسنة اللاهثة، كانت قبالته، تدفع السلك برأسها، تقترب منه، تهتز الفتحات، يتوحد اللعاب، تصتك الفتحات ببعضها البعض، تصدر أصواتاً، تصل موسيقى الفتحات إلى أذنه، ينتهى من نصب الفخاخ، ترقص الكلاب، يجلس الجنود القرفصاء، يحركون الزناد، تقترب الّصغار من الأم، تصدح نایاتها، تَصخبُ الموسيقى، تصوب الفوهات صوب مؤخرات الكلاب، تبرز
الأنياب، تهجم على الفوهات، تتراجع، ينتصب العاشق بارتفاع السلك، ينتفض، تنتصب قبالته، تلمحه، تنبح بأعلى صوتها، تأتى كل الكلاب صوبها، تَصخبُ موسيقى النباح، ينفض يديه من التراب، يزحف، يقفز، يغادر المكان، ترتعش الصغار، ينهمر الرصاص.. تنزرع الكلاب في الأرض، لم يطلها، يطفئ شال الندى نيرانها، ينفجر السلك تتطاير قطعه فوق البيوت، يلتقى الكلب بوليفته، ترضع الصغار الأثداء، تهز ذيولها.

رفعت الجلسة

يكاد رأسي أن ينفجر، تدور بي الدار، المخيم، الفضاء، الأرض، السماء، أسمع صوت القاضي، يدب في أرجاء القاعة:
- إن أبغض الحلال عند الله الطلاق يا ولدى.
- أنا مُصرُ على طلاقها، لم يَعُد بمقدوري العيش معها.
لا أذكر أنني عِشت معه لأكثر من نصف ساعة.
_ ألم تصلا إلى حل مشاكلكما..؟! ألم يتدخل أهل الخير بينكما..؟!
رفض أن يتدخل أي إنسان بيننا...
- ستتشرد طفلتكما...
- ستكون في حضانتي.. من قال لك ذلك..؟
- هي في حضانة أمها.. هكذا الشرع.. لقد اتفقنا بشأن هذا الأمر يا سيدى القاضي.. ينظر نحوى:
- هل تتنازلين عن طفلتك يا بُنيتي..؟!
تخنقني الغصة، لا أستطيع الرد، أنظر إلى أبى، تحمر عيناه، تصبح كما الجمر، تحدق بي، تخيفني، تحذرني من قول لا أريد..
رفعت الجلسة..أنظر إليه، كان يقف على بُعد أمتار منى، يدلى رأسه، يغلى مرجل صدري، أتقيأ كلماته، قذفني بها ليلة الزفاف، لم ينتظر حتى الصباح، خرج للمنتظرين، يتجمعون خارج باب الغرفة، ينتظرون الحدث الأكبر، يعلن عن فحولته، عن انتصاره، دوت الزغاريد، انهالت عليه القبلات، أسمع التعليقات:
- هي الرجال ولا بلاش.
- متقول إلا قاعد على نار.
عاد إلى الغرفة، جلس قبالتي، لم أشعر بنشوة ليلة العمر، كم تحدثن

عنها نسوة الحارة، أصبحت في رأسي كما الأسطورة، أشعلَ سيجارة، نظر لي، ابتسمت له، تصنعَ ابتسامة، ارتبت، أحسست بأن شرك قد لفنى، تذكرت إحدى حلقات عالم الحيوان، كانت اللبؤة حامل في أشهرها الأولى، التف الشرك حول عنقها، لم تجف عذريتي بعد، عدلتُ من جلستي على السرير، نفث دخان سيجارته بقوة، دارت خيوط الدخان كما السلاسل في أرجاء الغرفة، دنوتُ منه، همست:

- ألستَ سعيداً بزفافنا...؟! أما زلت مندهشاً...؟

- ألم تنتظر هذه الليلة أكثر من سنتين..؟

- يحق لك أن تندهش.. لقد انحلت كل المشاكل، ها هم قد وافقوا على جمع شملك.. ستكون بطاقة الهوية بعد يومين في جيبك، ها أنتَ تعلن عن زفافك.. لم ينبس ببنت شفة، يزفر دخان السيجارة بتقزز، ينخفض صوت الزغاريد، أرجع إلى السرير، ما زال شرشفه مكرمشاً، خلتهُ يلحق بي، أعيد ترتيب الشرشف، يخونني البصر، يصلني صوته:

- ليتهم وافقوا عليه قبل توزيع بطاقات الدعوة بيومين على الأقل.

- لماذا تقل هكذا...؟

يكرر العبارة، يفرك يديه، يملأ الغرفة بالدخان، لم يرد، أسرح في عبارته، يخيفني سكوته، عبوسه، توتره، كان يقصد الموافقة على جمع الشمل، تنتفض فرائصي، أحس بأن ما تبقى من زينتي ينزلق، يسيل كحل العين، يصل فستان الزفاف يتغير لونه، كنت قد تقدمتُ بطلب جمع الشمل منذ اليوم الأول لعقد قراننا، قال لي:

- لا أستطيع الدخول بكِ بدونه، إن إقامتي هنا مهددة ومؤقتة، بطاقة الهوية ضرورية للإقامة والعمل.

أثار في الشفقة، أصبحت مخطوبته، لم يدخل، أعسلتني كلماته، حدثني كثيراً عن حياته الجامعية، عن إقامته في القاهرة، عن الغربة، عن آماله، طموحاته، لم أنتقل للربيع الثامن عشر بعد، لم أتقدم لامتحانات الثانوية العامة، قال لي:

- ستتقدمين لها وأنت في بيتك.. ستواصلين تعليمك الجامعي وأنت بقربه.

لا أدرى من دله على بيتنا، كيف اهتدى إليه، كيف وافق أبى بهذه السرعة..؟!

زَنّت أمي فوق رأسي، فوق رأس أبى، وصل شيطانها إلينا:

- لقد تزوجنَ من هنَ أصغر منكِ سناً، لم يأكلهن الغول، مصير البنت مهما طال الزمن بها لبيتها.

ارتشفَ القهوة، جلست قليلاً، تحدث كثيراً، أعجبتني اللهجة المصرية، قال لي أبى: لقد وُلدَ وتربى وتعلم في مصر، تناولت صينية القهوة، غادرت الغرفة، يُشعلُ السيجارة الثانية من الأولى، يهتز السرير من تحتي، أحس بأنني على غصن شجرة خاوية، عارية، تَنفلُ تسريحة شعرى، تَصلُني بقايا الزغاريد، يصلني صوته:

- لا أدرى كيف دخلت بك..؟!

أمسكتُ بكرة بطني.

- كيف تمكنتِ من أسرى..؟!

وقف في مكانه، أحسست بأن شيئاً يتحرك في أحشائي، صرخت:

- ماذا تعنى..؟

سكت، جلس، نطق:

- سأكونُ صريحاً معكِ.

- ما الذى تريد قوله؟ !، قل بسرعة، نفث دخان سيجارته، وصل وجهى، زغلل عيني:
- أنتِ لستِ الطموح الذى أصبو إليه، ولا التي أحب، لا أدرى كيف فكرت أمي بهذه الفكرة..؟،أن تكوني أنتِ المطية، الضحية، الفريسة، الجسر الذى أوصلني إلى جمع الشمل، إلى بطاقة الهوية، كنتِ معولاً لكى أحصل على وظيفة هنا، هناك لا توجد لنا وظائف، ينعتوننا بالأجانب، تصلني أنات الزغاريد، أغلقُ أذني، ترتخى يداي، تترك كرة بطني، تصل لبين الفخذين، أغلقهما، لم تجف قطرات البكارة بعد، تتحرك أحشائي، أهرع للدولاب، أرتدى سترتى، أتجه صوب الباب، يبتسم، ليس الآن، ستغادرين بعد أسبوع من الليلة، أصرخ.
رُفعت الجلسة...لم تطلعُ الشمس، أخرجني مع خروج العمال لعملهم، لم ينم طيلة الأسبوع في غرفتي، يجلس مع أمه، تواسيني باستخفاف:
- الدنيا نصيب، لستِ الأولى ولا الأخيرة.. يرتشفان القهوة معاً، يغيظني المشهد، أتحسس كرة بطني، تكبر، تتحرك أحشائي، ألدُ، لا يحقُ لكِ تسميتها، التسمية من حق أبيها، أنظر إلى أمي، أشدُ شعرى، لا يا ابنتي.. لقد أصبحت أماً، صحتك هي الأهم الآن، أرضعيها، أشعر بأنني في حاجة الى الرضاعة، أُقربها منى، يسيل لبنى، يصل شفتيها، تغفو، أصحو، يملأ صوت القاضي القاعة:
- إذاً عليك تنفيذ الشرط الذى اتفقتم عليه، أن تحضرها لرؤية أمها دونما مشاكل.
رُفعت الجلسة.. تتسلل يدى لشعرها، كانت تجلس في حضني، يتحرك رأسها في كل الاتجاهات، تدور عيناها مع الأصوات،

تلتصقُ بصدري، تمرُ عصافير يدها بحلمة الثدي، تمسكُها، أرتجفُ، يبللُ اللبن الفستان، أخاف أن يراه أبى، أعد شعرها شعرةً شعرة، أحفظه عن ظهر قلب، رفعت الجلسة..، يهتز الكون بي، لا أقوى على الوقوف، ينزعون روحي، لم يرها منذ ولادتها، لم يفكر حتى في زيارتها، قالوا لها هذا أبوك، صرخت، ألحق بها...، تدك كلماته يا فوخى: أنت أنت لست الطموح، أنت مطية، جسر..، أشعر بالغثيان، تلفني كلمات المواساة:

غداً تتزوجين سيد سيدو..، إللي ببيعك بيعو.. وأكسر وراه ألف إبريق، لم تبلغي العشرين عاما بعد، ستملأين البيت أطفالاً، أشعر بأنني ماعز لم تلعق وليدها بعد، ينزل صراخها سلم المحكمة، يهوى قلبي، يصل قدمي، تبتعد الخطوات، لم تتعد المرة الأخيرة العشرين خطوة، وصلت فيها لبيت الجيران، كادت أن تصل الشارع، صرخ صبية الحارة، الحقوا حنان.. رُفعت الجلسة.. أستقبلها..أعيش معها ساعات، تحكى لي كلمات مليئة بالجيمات والثاءات، لا نعرف النوم، أودعها، أعدُ خطواتها العشرين مساء كل يوم خميس، وأعدُها مساء كل يوم جمعة... رُفعت الجلسة... أنت لست طموحي..، أسمع كلماته، أكاد أن أتقيأ، يعاتبني الكبرياء، أدخل غرفتي تلاحقني نظرات أمي، أنظر إليها، تغمض عينيها، أنظر إلى كتبي، ما زالت على الرف، تشُدني، أتذكر زميلاتي، أنهين السنة الجامعية الأولى، أنفضُ الغبار عنها، أفتح الصفحة الأولى، لكَ منى عزيزي الطالب كل الحياة.

الغروب المشرق

أتوكأ على كتفها، تفلتُ منى، كدتُ أقعُ على الأرض طارت صوب شجرة، لم تعبأ بمناداتي، ذابت في ظلها، أقتربُ، يخونني النظر، أُكرر النداء:

- أين أنتِ...؟!

- أنا هنا.. عند اللوزة يا عمتي.

تهزني، تخلع جذور كياني، أقترب منها، أشتم عبقها، يلفها الربيع، أتوقف بالقرب منها، لم تسعفني الدموع، أمد يدى نحوها، أمسك بورقها، أخضرُ، طريُ، ناعم، يسقط نوارها الأبيض يسقط على يدى، يذكرني بطرحة الفرح، بفستان الزفاف، يلفها طنين النحل، أسمع صوت أبى قادماً من العدم، تغلق الغصة حلقى، أترحم عليه، أعد مرات إزهار شجرة اللوز، تزيد عن الخمسين بعامين، جعلني عانساً، عاوناه سوياً في زرعها سقيناها بأباريق الفخار، طلب منا أن نملأها من الثميلة، طرنا صوبها، وجدنا الماء غائراً، انتظرناه حتى جمّ، لعبنا بالعشب الأخضر من حولها، كان بلون مريول المدرسة، لم أرتده بعد، بقى أسبوع على افتتاح العام الدراسي الأول، نهرنا، تعجلنا، تعثرنا بطوب الأرض، جمعنا الماء بكفينا، ملأنا الأباريق، طرنا صوب شجيرة اللوز، دلقنا الماء من حولها، حوطناها بكتل الطين، فتح العام الدراسي أبوابه، ارتديتُ المريول الأخضر، ابتسمت أمي، كانت تضفر لي شعرى، اذهبي أنت تشبهين الخيارة الصغيرة، ارتدى البنطال الكحلي، يقصر شعره، يكاد يظهر أصلع، نذهب سوياً إلى المدرسة، كنت أصغر إخوتي، البنت الوحيدة بينهم، كان بيته على حدود ما نملكُ، هنا زرع أبى اللوزة،

سقيناها سوياً كبرت معنا، أزهرت في ربيعها الثالث زهراً أبيض، يأوي النحلُ إليه، يطاردنا النحل، نهربُ منه، نخافُ لسعهُ، يبتعد عنا، يعبُ رأسه في عمق الزهر الأبيض، يمتص رحيقه، يلقحه، يغادرُ الزهر شبعاً، تحطُ شمس الربيع عليه، تعقده، يصبحُ لوزاً أخضر، نقطفه، نأكله، يُطعم كل منا الآخر، تلسعنا ملوحته الشهية، نطرقه أطراف أصابعنا، نُخرج ألسنتنا، يرى كل منا طرف لسان الآخر، نقترب من بعضنا، نتضاحك، نلف حول اللوزة، تغوص أقدامنا في الطين، يعلق الطين بأطراف ملابسنا، يتوالى الربيع، تحط شمسه على النوار، تعقده، نأكل اللوز الأخضر، يتغير لون المريول، يصبح أزرق، تنعقد لوزتا صدري، تفزان من مكانهما، يغزو اللون الوردي وجنتيّ تنساب خصلة الشعر الأمامية منى، تتدلى، تغطى أهدابي، يخشن صوته، نبتت شعيرات سمراء في وجهه الأسمر، يمشط شعره، يفرقه، الجزء الأكبر منه جهة اليمين، تقترب حقيبتي من لوزتي صدري، يمسك حقيبته من طرفها، تتدلى بمحاذاة ساقه الأيمن، يتعذر اللقاء، أصبحت خطواتي محسوبة، تكثر الحجج، تأذن لي أمي، تشرف الشمس على الغروب، يصبح من يقترب منها ظلاً، يجذبنا عبقها، يغادرها النحل شبعاً، يرجع إلى خلاياه، تتحول شجرة اللوز إلى أيكة، تخفى نصفنا العلوى، تتأخر بعض النحلات، تتوحد مع الزهر، تمتص آخر ما تبقى في الزهر من رحيق، نرى النحل، نتوحد، تعقد الشمس الزهر، نقطف الثمر، نتقاسم المذاق، نسمع نحنحة عن بعد، ينسلخ توحدنا، نجلس، نهمس، تعيش اللوزة أحلامنا، تتقاذفنا الأحلام، نصمت، تمر النحنحة، نقف، نَعدُ مرات الإزهار، سطوع شمس الربيع عليه، تدخل الثامنة عشرة، نأكل اللوز الأخضر، تلسعنا ملوحته، نتشلفط،

نخرج ألسنتنا، نطرق أطراف أصابعنا، نقترب من بعضنا، نلهثُ، نرتجفُ، نخافُ، تبتعدُ، ننظر إلى عيون بعضنا، نتضاحك، ننظر إلى اللوزة، يتسرب الظلام إليها، تراقب العيون عودتنا، تحذرنا، تهدد بقطع اللوزة، زرعها أبى عند حدود ما يملكه من الأرض، يقرع جرس العام الدراسي، أُخبئ خصلات الشعر تحت المنديل، قالت لي:

- (لقد كبرت، أصبحت عروساً، لا يليق ذلك بصبية مثلك، جمال ومال وحسب ونسب).

يمر جواري، يطولُ طريق المدرسة، يُسبل جفنيه، يهمس بتحية الصباح خجلاً، خائفاً، أردُها من تحت الحقيبة، يتعدى إزهار اللوزة الثامنة عشرة بخمس سنوات، تستكين حركة الحقائب، ترتص الكتب، بقايا خربشات جميلة على أطراف ورقها، نتخرج من الجامعة سوياً، تتغير ألوان، أشكال الملابس، تتدلى الحقيبة على كتفي، أسرق ألوان الصبح، أتزين، يفوح عبق زهر اللوز، أتطيب، يتلقفني مفترق الشارع، نتبادل التحية، ينظر إلىّ وكأنه يراني لأول مرة، يعاتبني:

- لماذا تأخرتِ..؟

أطير من الفرح، ألمح القلم في جيبه، ينظر إلى ساعته، لقد تأخرت عن موعد العمل، وأنا كذلك، أغادر العمل، أدخل البيت، تلاحقني نظرات أمي تعليقاتها:

- يا آخر العنقود يا سكر معقود.

تلف من حولي:

- (والله وصرتي عروسة، إن شاء الله نفرح فيكِ عما قريب).

أغامزها، تبتسم، تضحك، أفرح كثيراً، تقطع ضحكتها، أتوقف

عن الطعام، أحاول أن أسألها، تقف اللقمة في حلقى، تنظر إلىّ كمن يراجع شيئاً، يتسرب الحزن لعينيها، تتحطب اللقمة في حلقى، يسعفني كوب الماء، تنطق ببضع كلمات:

-(معظم بنات العائلة عوانس، أكل عليهن الدهر، أصبحنَ مقعدات، لا بنت ولا ولد يعيلهن).

تغادر المكان، يهزني بركان، ماذا دهاك يا أمي.. عما تتحدثين. ماذا تقصدين..؟!، أنظر من النافذة، تطل على ما يملكه أبى من الأرض، يصل بصرى إلى حدودها، إلى اللوزة، كتلة بيضاء تجلس تحت الشمس، لم أزر ربيعها الرابع والعشرين، لم أقطف اللوز الطري، لم يحرقني مذاقه، ألمحُ أباريق الفخار بالقرب منها، تلوح لي، بدأ الملح يغزو ماء الثميلة، بصمات أقدامنا مازالت هناك، يظهر نصفنا السفلى، توحُدنا، أتذوق نصف لوزته، تلسعني، أُطرق أصابعي، يتذوق لوزتي، يتلذذ بملوحتها، أركضُ، يركض خلفي، يعلق الطين بثيابنا، ننعجن به، يغلف المغيب شجرة اللوز، تندسُ فيه، نندس فيها، يُدقُ باب الدار، يُفتحُ، ترد الأصوات بالتحية، تصلُ أُذني موسيقى عذبة، تفرز صوته، تزداد ضربات قلبي ترتعش، تدخلُ أمي الغرفة، تبتسم، تمسك بيدي، تتركها، ترفع يدها، تتمتم:

- (يارب يا مسهل كل درب، يا ميسر كل صعب، ما تحرم حبيب من حبيبه).

تزداد تمتمتها، تردد اسمه، ينتابني الارتياب، يقفز صدري من مكانه، تكبر لوزتاه، أذرع الغرفة، كما الدجاجة الغريبة، لا تعرف أين تضع بيضتها، جاء يطلب يدى، كأنى أسمع اسمه للمرة الأولى، يطول الحديث، يتصاعد الصوت، أتذكر عوانس العائلة، تصل

كلمات الاستجداء الغرفة، يستأذن أبى الضيوف، يخرج وأخوتي، تلحق بهم أمي، ينهرها، أرقد في إحدى زوايا الغرفة، تقع غرفة الضيافة بالقرب من باب الدار، يزداد ارتياباً، ماذا دهاهم..؟، لماذا تركوه وأهله..؟! تترجم أمي بعض حركات أبى، يندفعون إلى غرفة الضيافة كتلة واحدة، يخيم الصمت على المكان، يثقل رقادي، أُرسل سمعي إلى هناك، يصلني الحديث، يتكلم أبى:

- (والله إنك مثل أولادي تماماً، لكن الدنيا قسمة ونصيب، وإن شاء الله بترزق بأحسن منها).

أشعر أن نصفى الأسفل ينقسم عن نصفى العلوى، تنفصل فقرات عمودي الفقري عن بعضها البعض، يغادر الرجال البيت، تدخل أمي عليهم، يعرف أبى ماذا تريد، يصرخ فيها قبل أن تتكلم:

- (اسمعي أنتِ وبنتكِ... هذى الأرض من عرقي وعرق أبى وأجدادي من قبله... بدك أفرط فيها في ليله ما فيها قمر.. يخذها منى غيرى، ينحرم منها أولادي.. إن شاء الله ما عمرها اتزوجت.. ماذا ينقصها..؟ كل شيء متوفر والحمد لله).

لا أعي بماذا ردت عليه، ولم أعُد أدرى إن كانت اللوزة تزهر مع كل ربيع أم لا، أو أن الشمس مازالت تحط على نوارها فتعقده، أو أن النحل مازال يتنقل بين الزهر، لم أذق طعم اللوز من يومها، لم يلسعن، لم أطرق أطراف أصابعي.

أسمع صوتها يناديني، أتذكر أنها كانت معي، كنتُ معها، أناديها:

- أين أنتِ..؟

لا ترد، تلوح لي بيدها، لم يسعفني البصر كثيراً، أُكرر النداء، أتذكر عمر اللوزة، تشرف على الخمسين، أترحم على أبى، أسمع صوتها:

- انتظري قليلاً يا عمتي، ها أنا قادمة.
أتجه صوب الصوت، أصلها، أراها تقف إلى جواره، تُغطى اللوزة نصفهما العلوى، تطعمه اللوز، يطعمها، حنطي اللون، تُخرجُ له لسانها، يُخرج لها لسانه، تلسعهما ملوحة اللوز، يطرقعان أصابعهما، ينسحبان من عبها يشدان روحي، تحمل بيدها قطعة قماش بلون ورق اللوزة، تريد تفصيل مريول المدرسة، ستذهب لعامها الدراسي الأول، تُهتكُ أعصابي، تحطم عظامي، أصرخ فيها، بأن تصرخ فيه، فيهم:
- بأنه سينقصني الكثير، سينقصني اللوز، لسعته، زهره، نحله، شمسه، ينقصني من أتوكأ عليه، من يتوكأ علىّ، ستنقصني الحياة، ثوري في وجههم، قولي لهم: لن أكون عمتي، أريد الحياة.
تتعجب ابنة أخي، تلتصق بي، تكلمني بصوت الواثق:
- لم أفعل شيئاً يا عمتي، إنه صديقي، كنا نطعم بعضنا اللوز.
أقبلها، ألمح طرحة الفرح تتوج رأسها، تتدلى خصلة الشعر من تحتها، تصل إلى أهدابها، تمسك بيدي، تزهر اللوزة من جديد، تلوح له، تعقد الشمس الزهر، يودعها، يتحول الزهر إلى لوز أخضر، تهمس:
- هيا يا عمتي نفصل مريول المدرسة.
أتوكأ على كتفها، ألمس فستانها، أظنه فستان الزفاف، أخشى عليه غبار الأرض، أمسك أطرافه.

الجميزة

جرس الحصة الأولى.. الليلة الفائتة.. المقعد الخالي.. كدتُ أردُ عليها تحية الصباح.. أُخاطبها.. يدخل المعلم الحصة.. السفر مفاجئ.. تقف من أمامي.. تنازعني المقعد.. تخزني.. أحس بسن قلم الرصاص.. تهتز خاصرتي.. أخاف المعلم.. أخنق صوتي.. أنظر إليها.. تبتسم.. أودعها.. ترتجف الأيدي.. تنفك من بعضها.. مازلتُ أحسُ بسخونة دموعها.. تُحدثني عن سر السفر المفاجئ.. بدأت الجميزة تبتل بخيوط المغيب.. تأوي رفوف العصافير إليها.. تنظر إليها.. يُعيدني وجهها لليوم الأول الذى دخلت فيه فصلنا. . كان ذلك منذ أربعة أشهر.. مياسة.. رقيقة.. ناعمة.. طاووس يفرش ألوانه على رابية.. لم تكن بالزي المدرسي.. اعتذر والدها للمعلم.. قال له:

- ستكون غداً بالزي المدرسي.

تغامزت البنات.. حاول المعلم أن يكون متوازناً.. لم يستطع.. بالغ في الترحيب بها.. تأملت الفصل.. أماءت للمعلم برأسها.. شكراً.. تتضاحك البنات.. لم يعتدن على مثل هذه المجاملات.. تدلت خصلة من شعرها، غطت الجبين.. وصلت أطراف الأهداب.. لم تحضر زميلتي هذا اليوم.. وخزتني الغيرة.. تململت بتثاقل.. أصبحت جارتي في المقعد.. أصبحنا صديقتين، السفر مفاجئ.. المقعد خال. يهزني النحيب.. تعانق الأغصان أجنحة العصافير.. تنظر إلى الجميزة.. تتأملها.. تقع على حدود قريتنا.. شدتنا خطوات الوداع صوبها.. تُصيبها الغصة: هذه المرة الأولى التي نزور فيها الأهل.. جئنا لنستقر في أرضنا.. نضرب الغربة بحذاء.. لكن أمي لا تملك هوية.. ونحن كذلك.. لا يحق لنا الإقامة في بلدنا.. تزوجها أبى

هناك.. في بلاد الصحارى العربية.. يمتلك بطاقة هوية.. أذاقه جدى أصناف الويل.. سمعته ذات مرة يقول له:
-(أنا لميتك من الشارع.. جئتنا صعلوكاً واليوم تريد أن تذهب لبلدك.. أتريد أن تحرمني ابنتي.. من لها هناك..)؟!
تناسى وجودنا.. تناسى أنه زوجها.. أمي أكبر بناته الأربعة.. لم ينجب جدى ذكوراً.. حرم أبى من زيارة أهله خمس عشرة سنة، حجز جواز سفره.. أغرقه في الديون المفتعلة.. الغربة مسعورة.. لا يحس بسعارها إلا من اكتوى بها.
السفر مفاجئ.. المقعد خال..تصمت فجأة.. تثقل الخطوات.. تمر رفوف العصافير من فوقنا.. ترفع يدها.. تحاول أن تمسك أحدها.. تطير معها.. تحط على الجميزة.. أقطع حلمها: يقولون أن السعودية بلد جميل وغنى. تتناثر حروف الكلمات بين شفتيها.. قاتل الله الغنى لقد أهان أبى.. جعل أمي تقف على شفير الطلاق.. يتوعدها أبى.
أسمع صوته مع الهزيع الأخير من الليل:
كفاني ذلاً.. خمس عشرة سنة وأنا مكبل عند أبيك برغيف الخبز.. حرمني من أهلي.. من بلدي.. من شجرة الجميز.. ليتني كنت هناك.. أقاوم المحتل مثلهم.. أُسجن مثلهم.. لكنه خبأ جواز سفري.. ضيعه من أجلك أصبحت أكرهكِ.
لم أعرف شجرة الجميز من قبل.
السفر مفاجئ.. المقعد خال.
تترك يدى.. تنحني.. تمسك بالعشب من حول جذعها.. تداعبه، تضمه.. تقضمه..أعيد لها الوخزة.. تلمس سبابتي خاصرتها.. تكاد أن تخرج من المقعد.. تفلت منها ضحكة خجولة.. تلفت نظر المعلم.. تمد لي يدها.. أشدها.. تتمرغ على العشب.. تواصل حديثها: تحاول

أمي إقناعه.. تتوسل إليه.. سنفقد إقامتنا هناك.. لم تستطع الاقامة هنا.. لقد أدمنا الغربة.. أصبحت تجرى في شرايننا.. ها هو أبى يتعجلنا.. ستنتهى الإقامة بعد أسبوع.. أرجوك..أخاف أن تتعذب.. نتعذب جميعاً.. أخاف أن تنتقم منى.

ما ذنبي إن لم يُنجب أبى ذكوراً..؟ وأكون أنا الابنة الأكبر له. تحسست وقتها نفسى.. أجدني أنثى.. لكن لي أخوة من الذكور.. يزداد نحيب أمي.. تندب حظها.. تواصل إقناعه.. لقد أصبح لنا أولاد.أغلق أُذني.. أسد بالوسادة فمي.. يرد عليها:

كان يمنعني رغيف الخبز كي أبقى في حاجة إليه.. يحرمني من زيارة الأهل.. من رؤية الجميزة.. لم يتركني أهنأ بكِ ليلة واحدة.

أقذف الوسادة.. تصل السقف.. أود الصراخ.. كفاكما ذبحاً.. ترتد الوسادة.. تكمم فمي.. تواصل أمي:

- أقطع على نفسك وعداً بألا تتركني.. تمسني بسوء.. أنا غريبة عن هنا.. لا أملك سوى أولادي.. صحيح أنا من نفس العائلة لكنني لم أُولد هنا ولم أعرف أياً منهم.. بدت وكأنها تخاطب نفسها:

- أنا خائفة.. سأفقد إقامتي هناك وأضيع هنا.. أليست هذه الحقيقة...؟!

يرد بحنق:

_ أنا لن أعد بشيء.. أنا حر هنا.. أفعل ما أُريد.. أُطلق وقتما أُريد.. أتزوج وقتما أُريد.. أرجع إلى البيت.. أُغادره.. أنام.. أصحو.. أقف.. أقعد.. أُجامل الناس.. يجاملونني كما يحلو لي..لقد طلقت عبودية الصحراء.. تركتُها لأبيكِ.

زفير طويل يغادر روح أبى.. لقد أدمن والدكِ الذهب والتخمة.

تسأله:

- ما ذنب أطفالنا..؟ سيشرَّدون..

- لا تلوين ذراعي.. يعلو صوته.. تريدين تسليمي لقاتلي من جديد.. أأنت زوجة بحق..؟!
تتوسل له:
- نجدد إقامتنا هناك.. ثم نعود ونستقر هنا..لربما نحتاجها في المستقبل..
يهدأ قليلاً:
- (اسمعي يا بنت الحلال.. إذا قررت السفر فأنت طالق.. أما الأولاد فلا خوف عليهم.. سيكونون عند أهلهم.. على أرضهم.. سيلعبون تحت الجميزة.) يعلو نحيب أمي.. يغادر الغرفة.. يصرخ فيها:
-اذهبي إلى الجحيم أنتِ وأبوكِ.. السفر مفاجئ.. المقعد خال.
تدب خطوات المعلم بالقرب منى.. تمر عنى.. توقظني الخطوات.. نجلس تحت جذع الجميزة مباشرة.. نحضنه.. تشكل أيدينا دائرة حوله.. يبلعنا الصمت.. نسمع صوتها.. تهدهد عصافيرها.. يغزو القمر خيوط أوراقها.. أغصانها.. بدأ اللون الرمادي يلونها.. تخشع العصافير.. تستمع لحديث الجميزة.. تحكى لها حكايات الجدة.. تقع عند المفترق المؤدى إلى المدرسة.. تميل على صدري.. أحس بلزوجة مالحة.. تزداد ضربات قلبها: لم يبق إلا ساعات على السفر.. تتوجع.. تبتعد خطواتنا.. يفرش القمر الطريق.. يفرض نفسه على العتمة.. يظهر لون المدرسة أبيض.. تجذبنا نيران الوداع.. تحرقنا.. تغادري صدري.. وجهى.. تتهالك أنفاسها :
- أبلغي تحياتي لزميلات الفصل.. تطير صوب الجميزة.. يشدها بريق العشب الأخضر.. تداعبه.. تضمه.. تقضمه.. تبرق دموعها.
- لا تنسى أن تبلغي سلامى للمعلم..
تطيل النظرة للمفترق المؤدى للمدرسة..

يوقظني صوت المعلم:
- انتبهي للدرس.. أتحسس المقعد بجواري.. أجده خالياً. . يتأمله المعلم.. يغمض عينيه لوهلة.. يكمل الدرس.. أنظر الى السبورة.. يبرق العنوان.. من وسطها..(الوطن).. يعلن الجرس انتهاء الحصة الأولى.

سمات

توقف المطر منذ لحظة، سد ظمأ الأرض تسربت خيوط الشمس إلى فناء المدرسة، وقف من مقعده، خرج من غرفته، توجه إلى الحديقة، جالها، لفت نظره زهرة تفتحت خروجاً عن المألوف، جلس قبالتها القرفصاء، تأملها، تمتم، أظنه دعاء، لامسها بأطراف أصابعه، تحسس ورق النبة الأم، كان لون الزهرة أبيض، لاح شخص من بعيد، كتلة سوداء تدخل المدرسة، بدأ رذاذ المطر يتساقط من جديد، دلف إلى غرفته، جلس على مكتبه، دخلت الكتلة السوداء خلفه، ظهرت عليه علامات الارتياب، لم يظهر منها إلا العينان، ملثمة، بادرها بغير اتزان، تفضلي بالجلوس، ردت بصوت أقرب إلى الأنين:

_ لا.. شكراً..

يلهث صدرها:

- أُريد أن أراها.. (الله يخليلك أولادك).

تتلاشى علامات الارتياب رويداً عن وجهه، رد بنوع من الراحة:

- من هي..؟

لم تكن أطراف الحروف واضحة:

- الديوان.. المخترة.. زعامة العائلة.

- ماذا تقولين...؟!

تلعثمت:

طفلتي.. التي التحقت بمدرستكم منذ أسبوع.

صمت قليلاً، أنزل يديه عن رأسه:

- آه.. نعم..نعم..

تغير لونه، احتد فجأة، سألها:
- أأنت أمها..؟!
- نعم..
- كيف توافقين زوجك على نقلها في مثل هذا الموعد من العام الدراسي؟!
ألا تعرفين بأننا على أبواب امتحانات النصف الأول.. أجبرتماها على ترك أصدقائها وزملائها.
حاولت الإجابة، لكنه واصل منفعلاً:
- والله لولا خطاب السيد المدير الذى حمله زوجك ما قبلتها في مدرستي.
- الله لا يحرمك أطفالك... تح لي الفرصة بأن أراها بسرعة.
- آه.. قولي أنها نسيت أدواتها.. وحل الواجب.. !تجمد لسانها..
- أكيد خرجت بدون إفطار.. لأنك أم...
- هي ليست..
- هي ليست ماذا...؟
هز رأسه:
- أتريدين إقناعي بأنها تتأخر في النوم... وأين أنت عنها..؟، نسيت أيضاً أن تمشطي شعرها، وبتهكم واضح:
- وكذلك المريول دونما غسيل، والعينان ممتلئتان بالقذى والأهداب ملتصقة ببعضها البعض، لحظة وسترين المعلمة وهى تخرجها إلى المغسلة كي تغسل وجهها.
أدرك أنه أطال وأثقل، سكت فجأة، شيء ما هزها، لم تحاول الرد، كادت أن تسقط على الأرض، تلقفها أحد كراسي المكتب، دار وجهه نحو الشباك، أشعل سيجارة، مشى خطوتين، مازالت

السماء تروى ظمأ الأرض، ترتعش الزهرة تحت المطر، ألقت برأسها على الطاولة، يغطى لوح زجاجها صور الأطفال، تملأ الابتسامات شفاههم، تجذبها الصور، أصبحت تحكى مع نفسها، تذكرت ولادتها، ماذا ستسميها..؟ أنتِ حُرة في تسميتها.. أنت والدها.. هي أيضاً ابنتك.. كانت حنطية اللون.. إنها بلونكَ.. لا.. إنها بلونكِ أنتِ.. تسكتُ، لا يفهم شيئاً، بدا خائفاً، ظن أن حديثه قد أثر على نفسيتها، حاولت رفع رأسها، تجذبها ابتسامات الأطفال، تغير لون وجهها، ساد الصمت غرفة المكتب سدت أُذنيها، كأنها تسمع حديثاً قادماً من الفضاء، أصبح صوتها مسموعاً، ها هي أسنانهم الصفراء بارزة، يريدون نهشي، سألها بتوتر:

من هُم..؟، لا يوجد أحد هنا.. لم تلتفت له.. تنظر إلى صور الأطفال، ها هم يتصارخون:

- الديوان لي، زعامة العائلة لي، هي ليست من حقك.

- أنا أكبر منكَ سناً..

- أي سن هذا.. أنا أكثر منكَ مالاً وأولاداً.. أنت لم تنجب ذكوراً مثلى.

ابتسامات الأطفال تتربع من خلف الزجاج.. ينهمر المطر بغزارة، تقف قبالة النافذة، خاف عليها من الهستيريا، طلب منها أن تجلس، تسد أُذنيها ثانية، لم تجلس، تنهمر دموعها، بُحَ صوتها:

- خذ منها الطفلة.. طلقها.. كان واقفاً.. يدلى رأسه صوب الأرض.. أنت تسمع ما أقول..؟ لم يكُ بيننا خلاف، زادت من وثاق زواجنا.. نحن أبناء عمومة، نفذ ما طُلب منه، أصبح عمرها ثلاث سنوات، انتقلت بها لبيت أبى، كان مولعاً بها، لم أتركه يراها، طيلة السنوات الست، دخلت المدرسة، ظننت أن حرمانه من رؤيتها سيعيدني

لعش الزوجية، هكذا نصحتني أمي، يرفض عمى كل المحاولات، انتزع المخترة من أبى، تقطع حديثها، تسأله بوله، هل أرسلتَ لها..؟ يهز رأسه، لم يظهر من وجهها إلا العينين، تواصل:

- مرت السنوات بسرعة الحلم.. لم أعد إليه.. عادت إليه، أصبحت في حضانته، كبر الحقد، كنتُ أنتظرها عند باب المدرسة، أراها لوهلة عن بُعد، لم أجرؤ على الاقتراب منها، كان يعاقبها، يوصيني أبى بعدم الذهاب لها:

- عليك نسيانها، أنت مازلت شابه وجميلة، وسيأتي من يطلب يدكِ.. سأزوجك.. لم أرها منذ فترة، ظننت أنه قد فصلها من المدرسة.

ابتسامات الأطفال تفرش لوح الزجاج، تنتشر في غرفة المكتب، تطفح بها الغرفة، تخرج الابتسامات، تفتش الفصول فصلاً فصلاً، تبحث عنها، يقفز قلبها.. يلحق بالابتسامات، تفتش السبورات. في سطور الكراسات، تركض في الساحات.

ترفع رأسها، تمسح بقايا الدموع من عينيها، تسأله:

- هل أرسلت لها..؟

- أرجوك.. بسرعة.. لقد أتيت ملفوفة باللون الأسود كي لا يعرفني أحد.. تسللت من وسط البيوت والمزارع.. عرفت منذ يومين فقط أنه نقلها إلى مدرستكم، تصور لو حدث لك هذا.. ماذا ستفعل..؟ تشتد الرياح عصفاً، تتعرض الزهرة للخطر.. تنحني، تكاد أن تنكسر.. التفتت إليه.. أحست أنه لم يسمعها، انفجرت السماء التصق وجهه بزجاج الشباك، استر يارب، هي الزهرة البيضاء الوحيدة المزهرة في الحديقة.

- هل أرسلت لها..؟

- آه.. آه.. نعم.. نعم.. خفت حدة المطر، ابتسم.. مازال الخطر

مطبق بالزهرة.. نظر إليها.. تعجب.. أزاحت اللثام عنه شاهد كل وجهها.. نظر إلى النافذ.. تقف بالباب.. يطغى صوت رفيع.. رقيق، منكسر على صوت الرعدة، دكت المكان:

_ نعم يا سيادة.. نظر إلى الحديقة.. تُراقص حبات المطر زهرتها البيضاء.. ابتسم.. التفت.. هاله المشهد.. لم يستطع مشاهدته.. غادر الغرفة مسرعاً.. هطلت السماء اسماء:

- سمات.. سمات.. تكسرت الغيوم الداكنة.. لقحت خيوط الشمس نبات الحديقة، طعمت زهرتها.. انتشرت كلمة ماما.. ماما.. غطت الفضاء.

أرجوحة
بين القلب والروح

شده الطين المغتسل بماء النهر الحصان.. قفز المسكين الجرف.. تناوشته أسنانه.. أنزفه صخره.. لم يعبأ بالجروح.. أصبح الحصان أسطورياً.. كانت الدنيا مساءً.. امتزج لون الحناء بلون الطين والمغيب.. جذب اللون الحصان.. هبط عند الطين.. ترجل الفارس.. نظر للطين.. كان بكراً.. سجد عند قدميه الحافيتين.. قبلهما.. هدأت روحه.. كان عليه أن يصنع إلهاً..صنعه.. لم يستأذن الفارس الطين.. غضب الطين عليه.. علق به.. أدمنه الفارس.. سكن عند النهر.. بنى كوخاً.. لكن الطين مقدسُ.. رفض أن يُدخله لحضنه.. قال له:

- لن تشعر بدفئي قبل أن تغتسل بماء النهر أربعين ليلة، أن تقف تحت الشمس أربعين نهاراً، وأن تتدهن بالطين أربعين أخرى، وأن تسجد تحت قدميه أربعين يوماً متواصلة بلا شمس وبلا بدر، فإذا ما سمعت هاتف السماء أربعين صوتاً، عشر منها عن يمينك، وعشر عن شمالك، وعشر من تحتك، وعشر من فوقك، لا تتحرك، فإذا ما جاء الطير وقطع النهر بين الكوخ والشجر أربعين مرة.. واستكان النهر مع الفجر أربعين موجة.. وشاهدت الطير يبنى أعشاشه فوق صفحة الماء فلا تتحرك.. إلا إذا وضع الطير البيض في الأعشاش وفقس البيض.. حينها سيفكر الطين البكر بأن يدخلك لحضنه.

انحنى الفارس، نفذ الشرط، كيف تحمل..؟ العشق أثقل، ضغط الطين على القلب، همد النبض، غادر الليل نصفه، ارتعد نجمه،

رفرف الكون، ارتعش، جاء الطير، عشش، هبط هاتف السماء، قال له: بقى عليك أن تردد من بعدى أربعين صرخة:

_ إني أُحب الوهاد قلبها.. وأعشق منها الروح.. وأهوى فيها البكورة. ابتلع الطين نصف الفارس، ترامى صوته، بقى الكوخ مغلقاً.. لم ينزل الطين، التصق به أكثر.. تسلل للمسام.. توغل.. أسر الوريد والشريان.. انكمشت الضلوع.. سرى مع الدم.. ضاقت مسافات النبض.. اعشوشب في الروح.. سكب فيها سره الأزلي.. لقح بويضتها.. حملت منه.. وضعت.. أرضع النهر والشجر والطير طفلة الروح.. كبرت.. صارت بعمر الأعشاش.. نضج ثمرها.. نادته الآلهة:

- هذا قدرك.. هي لك.. خذ منها ما يطيب.

- آسف..

- أتحبها...؟!

- من يكره ابنة روحه..

- أتعصى الأمر...؟!

- آسف لذلك..

- سأعذبك بروحها..

- ما أجمل عذاب الروح للروح.

- سأخلع عليها من فرحى كوناً.

- سأكون أول المتهدجين في كهف بسمتها..

_ سأكويك بنار ضحكتها..

- سأكون قمر كونها.

- سأقهرك حرماناً.

- الحرمان عطاء أيضاً.

- سأحكم عليك بالعشق الأبدي.
- من أجلها سأمتثل للحكم.
- إذاً اسجد لها.. قبل كل شيء فيها.. سجد.. نادت الآلهة طفلة الروح..:
- كونى باسمة.. اكويه بها.. بدأ التعذيب.. نصب لها الأراجيح.. كانت بين الشاطئ والشاطئ.. بين الشجر والشجر.. بين العش والعش.. بين الموجة والموجة.. صار الفارس يقبل قدميها عند ذهاب الأرجوحة ومجيئها.
كان البحر كوناً.. القمر بدراً.. الثغر شهداً.. هوى النجم.. انغرس في قلب النهر.. شرب الخمر.. أنبت نبتاً.. كان زنبقاً.. تفتح ثلجه.. عطر الأرجوحة.. اغتسل الفارس بعبق الزنبق.. قطف شلحاً.. غرسه في شعر طفلة الروح.. ابتسمت.. كان بوده لو قطف آخراً.. لكن النهر رفض.. أيتها الحبيبة:
نسيت أن أقول لكِ أن الفارس قد نال منه العشق منالاً.. وأنه لم يعد قادراً على فراق الأرجوحة نبضة قلب.. ولا مفارق الوهاد رمشة طرف.. لكنه أقام كوخاً عند الشاطئ الآخر للنهر.. أَسكنَ الأول القلب وأَسكن الثاني الروح.

الزيارة الأخيرة

رد التحية، تفاجأت به، لم يكن هو الموعد الذى اعتدنا فيه زيارته، يحمل في يده مظروفاً، تبدو علامات التوتر عليه، حاول أن يكون متزناً، لم يستطع، رحبت به، جال بنظره الغرفة، لا يوجد غيرى، خرج جميعهم في مهمات رسمية، يضع المظروف على الطاولة أمامي، كنت أُنجز بعض الأعمال المكتبية، أنظر إلى ساعتي تعدت الواحدة ظهراً، تفقد مكاتب الزملاء، كأنه يصافحهم، كعادته كلما زارنا، وقف عند مكتبها، تأَّمله طويلاً، تبعثرت أوراقه، هكذا نترك المكاتب معظم الأوقات، مكركبة، متناثرة الأوراق، كدتُ أظنها موجودة، وأنه يتحدث إليها، كانت صورتها تجلس على منضدة صغيرة، تستند إلى جدار الغرفة، تتربع على شفتيها ابتسامة ساحرة، رسمها بألوان الزيت أحد الزملاء، تغير لون وجهه، شدته قصاصة من الورق، التقطها، أشعل سيجارة، اقترب من مكتبي، أصبح قبالتي، لم يجلس، أحسست به، أجبت عن بعض تساؤلاته، لم يسألها بعد:

- لقد اتصلت منذ الصباح، اعتذرت عن المجيء.

عاد إلى مكتبها، لم يبعدْ عن مكتبي سوى عدة أشبار، رفضت أن تستقل بغرفة منفردة، قالت سيكون مكتبي وسط مكاتبكم، اختارت الجهة اليمنى من الغرفة، قبالة الباب مباشرة، استغربنا الأمر، سنكون تحت المراقبة، لا نستطيع التسيُب، خابت هواجس ظنوننا، قالت لنا:

- نحن أخوة وزملاء.

كانت ساعدنا الأيمن، نظر إلى الصورة، توجد على يمين المقعد، رجع، أصبح بين المكتبين، زادت عيناه حيرة، تطلب نظراته المزيد، لم يكن لدىّ أكثر مما قلت، طوق عنقه بيديه، كأنه يحاول فك شيء لفه، تمتمتُ ببعض الكلمات، جلس، اقتربَ بكرسيِّه من مكتبي:

- لا أدرى لماذا كانت متحشرجة الصوت، سألتها سبب الاعتذار، ردت:

- لا.. لا شيء.

لكنني أحسست باعتصار كلماتها، بضيق تنفُسها.

مازالت القصاصة في يده، قرأها بصوت شبه مسموع:

- ماذا أفعل..؟ !

_لم أعره اهتماماً، سألني:

- ألم تسألها سبب الغياب..؟

- نعم لقد سألتها، لكنها لم تكن واضحة الإجابة، قالت:

- إن هناك بعض الأمور.. لم أسمع ما قالته بعد ذلك بالضبط، لقد كان صوتها حزيناً.

زجرني بنظراته:

- هكذا أنتَ دائماً، لا تسمع ولا تتكلم.

ابتسمت، قرّبَ القصاصة منى، أليس هذا خطها، قرأت القصاصة كُتبَ فيها: ماذا أفعل..؟!

دققت النظر، نعم هو خطها، سألته:

- لماذا راعتك هذه القصاصة، وماذا تعنى هذه الجملة؟

- ألست مستغرباً الأمر مثلى..؟!

- لا.. لماذا الاستغراب..؟

- إن مثلها لا يسأل مثل هذا السؤال، إنها تمتلك من القدرات ما يؤهلها على تجاوز أية مشكلة مهما استعصت، أليس كذلك يا عزيزي.

أنظر إلى الصورة، بدت في الآونة الأخيرة مضطربة، شاردة الذهن، أرد عليه:

- لكنها تظل إنسانة، لها قدراتها المحدودة.لم يعجبه قولي، حاولت التخفيف عنه:

- لا تقلق، على ما يبدو أنها نوبة من البرد وستزول إن شاء الله، غداً تكون جالسة على مكتبها.

جلس، صمت، وقفَ، وصل إلى الصورة، رُسمت بألوان الزيت، تتربع على شفتيها ابتسامة ساحرة، تستند إلى الجدار، تقع على يمين جلستها، أمسك بزاوية بروازها، وصل أنين كلماته إلى أُذني:

- إني أُحبكِ.. أعتقد أنكِ كذلك.

بدأت أفهم سر اهتمامه بالقصاصة، أتذكر قصائده، يُلقيها على مسامعنا، ملتهبة بالعواطف، تبتسمُ له، تجاملهُ:

- إنها قصيدة جميلة، غنية بالّصور، صادقة المشاعر، جياشة بالمعاني الإنسانية.

يطير من الفرح، هكذا هي دائماً، عذبة اللسان، ندية الكلام، خجولة، لا ترفضُ لأحد طلباً، تُمازحه، تسأله:

- من هذه صاحبة الحظ السعيد..؟ أعتقد أنها لا تستحق منكَ كل هذا.

يرتبكُ، لا يردُ، يختلس النظرة، يبتسمُ بحذر، لا ندرى كيف يَنسلُ من وسطنا، يرتفع صوتنا، صوتها:

- نرجوك ألا تتأخر علينا.

ينظر إلى الصورة، يُشعل سيجارة، أنظرُ إلى مكتبها، أتخيل جلستها، ابتسامتها، فرحتها عند قدومه، تُعيدُ بخفة ترتيب هندامها، ترفع ما تدلى من خصلات شعرها، تأنس بحديثه، يتعدى الأربعين من عمره، نال احترامنا، يقترب عمرها من عمره، لم يسبق لها الزواج، تقول له بود:

- تفضل بالجلوس هنا.

يكون الأقرب منها، يحمرُّ وجهه، تصبح الابتسامة عريضة، اختلف الأمر في الزيارة الأخيرة، لا نعرف بماذا همس لها حينما خرج صوتها حيز الهمس:

- لقد باتَ الأمرُ مستحيلاً، لن أسمح لنفسي بأن تنمو جذوري على حساب شجرة وارفة، أنا مع بناء الأعشاش لا مع هدمها، مع شدو العصافير لا مع كبتها.

عبس وجهه، غادرت الابتسامة شفتيه، تخلص من الجلسة بسرعة، ادعى أن عليه بعض الأعمال لا بد من إنجازها، وقفت، حنطية البشرة، مياسة القوام، تعمل في صمت، حساسة، ترفض الكلل، نادته:

- أرجوك الانتظار قليلاً.

حاولتْ اللحاق به، ترددت، تراقب عيون الزملاء الموقف، عادت لمقعدها، لم ترتب هندامها، ظل ذيل التنورة متراماً، غطى أطراف المقعد، ضربت الطاولة بقلمها، أمسكته ثانية، كان أسود اللون، أغمضت عينيها، كتبت على قصاصة من الورق، نظرت إلى ما كتبت، أنحت القصاصة جانباً، تناولت حقيبة يدها، نظرت إلى صورتها، كانت ابنة العشرين حينما أُلتُقطت لها، استأذنت بالمغادرة، ملأت التساؤلات العيون، سيطر الوجوم، كسر أحدنا حاجز الصمت، كان أكبرنا سناً:

- أقطع ذراعي إن لم يكن صديقنا معجباً ومولعاً بها.
يرد زميل آخر:
- لا تقل ذلك يا رجل، إنه متزوج وله أ ولاد.
- هذا ليس مهماً، إن وُلدَ الحب فكل المبررات واردة وصحيحة.
زاد فضول التساؤلات وحيزها، دخل الزميل الثالث المناقشة:
- إن كان الأمر كذلك، فهل تعتقد أنها تبادله نفس المشاعر؟ !
- أُجزم.. نعم.
- أنا أُنكر عليها ذلك.. إن عمرها ومكانتها لا تسمح.
- لماذا النكران..؟ إنها أُنثى، وتحمل كل ما في الكلمة من دلالات، ولِمَ لا...؟، أتريد لكل من وصل إلى منصب وقطعَ عُمرَ الأربعين أن يَسجنَ نفسهُ داخل نفسه، أن يقتل فيه الحياة، إن هذا العمر قد يكون هو الأمثل للزواج والاستقرار والأكثر متعة، سلني أنا.
- كيف..؟ قل يا قيس عصرك.
لم ينتظر الإجابة بل واصل الحديث:
- قل أُريد أن أفعلها وأتزوج على أم العيال..، أم أن الحب قد وُلدَ في قلبك ووقعت كصاحبنا.
- لا يا عزيزي، الأمر لا يتعلق بهذا ولا بذاك، لقد تزوجت من ابنة عمي وهى في عمر السادسة عشر، قُلتُ لأمي آنذاك: أنها صغيرة، كُنتُ أكبُرها بعشرة سنوات على الأقل، قالت لي:
(يا ما خذ الّصغار، يا غالب التجار)، لكنني لم أغلبُ إلا نفسى، بسرعة البرق حَملت، وضعت، أصبح الأولاد شغلها الشاغل، تراكمت الهموم على كاهلي، لم أذق يوماً طعماً للنشوة، ولم أستأنس بحديث.

قلت له:
- نحن الرجال ننكر علينا السعادة.
يُشعلُ سيجارة، ينظر إلى الصورة، تستند إلى الجدار، تقع على يمين المقعد، أنظر إلى قسمات وجهه، يتغير لونها من لحظة لأخرى، يتغير اتجاه نظراته، تنصبُ على الهاتف، مازال حديث زميلنا الأكبر يتواصل في رأسي:
- لا يا عزيزي، لا أحد ينكر السعادة على نفسه، ولا يوجد كلب يهرب من بيت يوجد فيه عرس، لكننا نحمل من النواميس ما يجعل الحلال حراماً، منكرين على أنفسنا سُنة الحياة وشرع السماء، لم تحسُ بنبض قلبها حينما كان يأتي أو يخرج، أتريدونها حديدية المشاعر، لا توجد ملائكة على الأرض، أنتم لم تجربوا الصراع مع الذات، كم هو مؤلم أن يصارع المرء ذاته، صحيح ستترك فراغاً كبيراً عندنا فيما لو تزوجت، أو غابت عنا.
يصرخ أحدنا، ينفعل، كان طيلة الحوار صامتاً:
- نعم.. هذه كارثة، لن تحدث مهما كلف الأمر.
يَشعر أنه خرج عن حدوده، يهدأ صراخه، انفعاله، لكنك كيف عرفت... يا قيس عصرك..؟
- لأن كل واحد فينا يشعر أنها زوجته، تَسدُ نقص زوجته الحقيقية، الكثير منا يخلط ما بين حاجة الروح ورغبة الجسد، يظن أن الأمر واحد، أنتم تستمتعون بحسن المعاملة، تشعرون بدفء الحديث، تودون لو تعملون ليل نهار، لم تسألوا أنفسكم ذات مرة لماذا، أتعرفون لماذا..؟ لأنكم تملئون خزانات أرواحكم نشوة، تزودون قِراب أجسادكم شبقاً، هنا تحصلون على الدفء بمزاج وشهية، وهناك تفرغونه رُغماً عنكم، أنتم تملكون الحرية، تختارون ما

يحلو لكم، ووقت ما يروقكم، تأخذون فقط، لا تشعرون بالوحدة والاغتراب داخل مضاجعكم، لا تخافون تجاعيد الوجه، ولا غزو الشيب للمفرق، لا تخافون ضمور اللثة وانكشاف عورة الأسنان، ما ذنب فتاتنا إن واصلت تعليمها؟ إن تفوقت، إن اعتلت منصباً، نفرح لها كلما حققت نجاحاً، وحينما نبحث عن زوجة نحاكمها بكبر السن، نتحجج بأنها لا تصلح للزواج ولا لإنجاب الأطفال.
يتجرع زميلنا ريقه، يرتشف جرعة ماء، أعجب من أمره، أتساءل في داخلي:
- من أين لصاحبنا كل هذا؟!، كان يحكى بحدة وبحجة، ينظر كل منا للآخر، يخفض رأسه لطاولة المكتب، يزداد عتاب النفس، لا زال يجلس من أمامي، لا يتكلم، يشعل سيجارة، ينظر إلى الصورة، تتربع الابتسامة على شفتيها، تستند إلى الجدار، تقع على يمين الكرسي، يقترب من جهاز الهاتف، يرن، يخرج الصوت من سماعته، أسمع صوتها:
- أنا منذ الغد في إجازة مفتوحة.
غداً موعد زيارته التي اعتدنا عليها، أنظر إلى الكرسي الذى يجلس عليه، لا أجده، نسي المظروف على الطاولة، أفتحه، أجد قصيدة جديدة.

عروس البحر

أصبحت مبعثراً، أُحاول لملمة ذاتي، أجدها تناثرت، تبعثرت في أرجاء مرفأ الحبيبة، اقتربتُ من الميناء، كانت الدنيا غروباً، تعود أشباح الصيادين للميناء بسرعة، يخافون غيلان البحر، يلجئون إليها، يودون لو باتوا الليل عندها، ألجأ إليها، أقف على بوابة الميناء، أرتجف خوفاً، لكنني على يقين أن قلبي يسكن عندها، أبحث دائماً عنه، أجده قد ابتل، بماء بحرها، أسأل أحدهم، يدلُني على بحار البحارين، هو الوحيد الذى يستطيع أن يخبرها، لكنه ينصحني عدم الاقتراب، يغمق لون الليل، يزداد خوفي.

_ دع قلبك عندها وتراجع.

كيف..؟ من منا يترك قلبه عند الآخرين..؟!

تنهشني الحيرة، أتقدم نحو البوابة، لكنني رددت على صوت طلب منى التراجع، يهتز الشاطئ، ترتعد أو صالي، أحاول التراجع، لكن الصوت يهتف بي من جديد، سأدلك على بحار البحارين.

- من..؟ عروس البحر.

توصلني، يقول لي:

لا تهرب، توجه إليها وسلها قلبك يا إلهى، حتى بحار البحارين يعرف مشكلتي، كيف عرف ذلك..؟! كأن أميرة الميناء لها شباك خاصة بصيد القلوب.

انظر إلى عروس البحر، لا تسرح كثيراً.. اذهب، لا مفر إذاً.. سأكون في انتظارك. أدخل مقر العرش، أخرج، أجد عروس البحر، أقص لها ما حدث.

- أصبحت ببابها، استعنت بالله على السؤال، أسألها كما الجائع يسرق فتاته، تنظر لي، تعكس عيناها دفء القلب، أنكمش، تهمس:
- عمَ تبحث..؟!
- أبحث عنى.
- ولماذا هنا..؟!
- هنا قلبي.
- من هداك إلى هنا..؟
- النجم.
- من أخبره..؟!
- لقد شاهد النجم الحدث، شاهده حينما قفز من صدري ليلة أن التقيتكِ عند كومة الأصداف هناك على الشاطئ.
- لا أذكر أنني التقيت أحداً.
- هل نسيتِ كيف هربتِ من بين يدى، لا أدرى كيف انسلخت شفتانا من بعضهما البعض، عندما تحججت بظهور القمر..؟!
قلتِ: سينكشف أمرنا، سيقولون أن أميرة الميناء عاشقة، سينكر البحارة علىّ الإمارة.
تصمت يا عروس البحر أميرة الميناء قليلاً، تتصلب عيناي في شفتيها، أحس وكأنني في اللحظة الأخيرة، كأنني قبل الموت وقبل الحياة، تجاملني، تربت على كتفي، أفرح كما الأطفال، أرتجف حباً، ستعترف بي، لقد امتزج لعاب ريقينا، قالت: لا تخف، شعرت أنني أمتص قطعة حلوى.
- سأفتش لك عنك..
لم تغب طويلاً، ستجدني عندها، عادت تقلب شفتيها، أحسست أن روحي تهوى في فراغ سحيق، تهزُّ ببرود كتفيها، يطوف رأسي

الأرجاء، يلمح من قلب العتمة تنورتها، تتعلق روحي بذيلها، يعلق أريج الأرجوان بيدي، تحوم روحي في عتمة شعرها، تتوه، تسألني:

- متى فقدت نفسك..؟

- منذ ولادتي الثانية.

وهل يولد الواحد مرتين..؟!

- نعم.. ساعة النزول من بطن الأم، أما الثانية فتكون منذ أن يعرف القلب الحب. فلا يحس بالأولى، لكن الثانية هي التي تجسد نبضه، تؤكد إنسانيته.

لقد قلت ما أحس به يا عروس البحر.

- وبماذا ردت..؟

تأملتني طويلاً، صوبت سهام سحر عينيها نحوي، اخترقت جوفي، اكتشفت سذاجة صدقي، قالت لي:

- يبدو أنك صادق... لكن مينائي كبير. والسفن كثير، واللاجئون إليه كما ترى، فأين سأفتش لك عنك. .؟، خاصة وأنك لست من بحاري الميناء، ولا من روَّاده، أو على قدرهم مالاً و جاهاً و سلطاناً.

- لكنكِ عصفتِ بقلبي.. جرّدتِني من كل الثياب.. عبثتِ بكل أشيائي.. نهشتها.. امتصصت منها نخاع العظم، هل تنكرون قلوب الفقراء عليكم..؟!

- أنت تحلم.

- لقد قالت لي عروس البحر أن لكِ قلباً رحيماً.

- سأحاول، آه، تذكرت أن لي بعض الأشياء المهملة سأفتش فيها عنك.

شعرت بمرارة ما أمتص، لم تغب طويلاً، عادت تلبس ملابس تلك الليلة، تأكدت منها، أخذني الليل إليها، ارتجفت شفتانا، امتصت ما تبقى من الليل، فالت لي: نحن نحب الفقراء لأنهم الأصدق عطاء والأكثر دفئاً.

ردها: لقد وجدت على إحدى قطع ملابسي كائنات مجهرية تسبح في اتجاهات مختلفة، اعتقد أنها من بقاياك، لكنني أنصحك المغادرة.

داهمني البكاء، كاد الجنون يلحق بي، أُعاتب روحي :

- أكنتُ لهذا الحد من الوهم والفضول والتسول..؟!

- أكانت مشاعري تغرر بي..؟!

- هل ضلت أحاسيسي الطريق...؟!

- إن كان الأمر كذلك فسحقاً للقلب الذى يستجدي القلوب، سحقاً لشفافية الروح، للشاعر الحالم، للقمر الساهر، لغيم الصيف، لكل محاريب التبتل، للموج يتسلل لأطراف أصابع القدمين، يملح عذب القبلات، سحقاً للعشب الطري يمتص قطرات ندى الهزيع الأخير من الليل، لفناجين القهوة، لأطراف الأنامل تترجم لغة الارتجاف، للبسمة الكاذبة، سحقاً لكرمشات اللحاف بين فخذي، تظن الحلم حقيقة.

تسمع يا عروس البحر عتاب روحي، يعترى الشبق وجهها، تتلذذ بذبحى، تمتص حتى آخر قطرات حبى.

- لا تقسو على نفسك يا صديقي العاشق، ستظل في أوصالها رغم نكرانها لك، فدم الفقراء دائماً يثير في الأميرات اللذة.

عليك مغادرة الميناء بهدوء، سينهشها العشق، ستفتش عنك، لأنك الأكثر نقاءً.

أقف على حدود الليل، تطاردني الصورة.

المجموعة القصصية

(الرابعة)

النـــوار والـــدبابة

2005م

النوار والدبابة

انفجر الكون، انقسم ظهر الليل، انطحن الهزيع الأخير منه، ترامت قطعه، وصلت البحر انقسم، ارتعدتُ، طار اللحاف، انتصبتُ، تفقدت فراشة مازال دافئاً، ضرب الانفجار صدري: لم أدرِ كيف سحبته السنون مني؟! وكيف وصل العشرين؟ !
يذكرني بأبيه، يقف طويلاً أمام المرآة، يحفظ تسريحة شعره، ينظر إلى صورته كلما دخل الغرفة، مثبتةً في صدرها، يتأمله، يتفحص ملامحه، يسألني عنه دائماً، لم يكتمل عامه الأول حينما جاءني الخبر، نزعتُ حلمة الثدي من شفتيه، فاضت باللبن، انسكب على وجهه.

هبط كما الندى، سرى في عروقي جرعةً جرعة، فرد عليّ غلالته. رأيته لحظة الوداع الأخيرة، مازال بملابسه، مُسجى بطول الغرفة، لفته أربطة الشاش الأبيض، انتشرت عليها بقع بلون الورد، يظهر وجهه من بينها، تلونت أهدابه بلون أجنحة الفراشات، تغطى ربوع التلة، عادها المطر بعد انقطاع، تشرفُ على أرض المواصي، تُطلُ على البحر، حملت ربيعاً، ولدت نواراً؛أحمر، أبيض، أصفر، تقبله الفراشات مع كل صباح، تغفو عليه لوهلة، تمصُ مياسمه، تُعقد حبوب لقاحه، احتلتها الدبابة، نصبوا عليها الرشاشات، لفها الجنود بالخنادق، أحاطوها بالأسلاك الشائكة.
أحاطوه الأطباء، الممرضات، الممرضون، لفهم الصمت، الوجوم، تنتظر جمهرة من الناس خارج الغرفة، يتدافعون نحو بابها،

لاحقتني همساتهم:
- على ما يبدو أنها زوجته.
- مازالت شابة.... صغيرة السن.
_ ترى هل أنجبت منه أطفالاً..؟!
يُسبلُ جفنيه، ظننته نائماً، حاولتُ إيقاظه، اقتربوا منى، قالوا بصوت مخنوق:
- لن يصحو.. لن يتحرك.. سيغيبُ طويلاً.
ماجت الجموع، اضطربت الكلمات، تكسرت، طبشت رأسي:
- ليتها استشهدت معه.
- اسكت، استغفر ربك، يقولون أن لها طفلاً رضيعاً.
يدور الجمع، يذكرون الله كثيراً، يملؤني الذهول، ماذا دهاهم؟! ماذا حدث لهم؟!
أنظر إلى وجهه، يطفح بالحياة، ترطبني كلماته، لم تخرج من روحي، همس بها قبيل الفجر، وصلت شفتاه أرنبة أُذني، سال لعابي، أسبلت جفوني، وصلني همسه:
- أأنتِ مجنونة؟ !، أنا أتزوج عليك...!
- كيف تسرب هذا الهاجس إليك؟ !، كيف سمحتِ لنفسك تصديقه..؟!
- إذاً، لماذا تأتى متأخراً..؟ هل هناك امرأة أخرى؟
يغلقُ فمي، لم أر ابتسامته بوضوح، أحسست بفرحته:
- هناك حبيبة أخرى مثلك تماماً.
لكَزتهُ، تصنع الوجع، ضغطتهُ إلى صدري، عضضت شفتيه، تفتتت كلماته بينهما:
- وهل هناك حبيبة غيرك؟ !.
يسلبني طيفه المنام، يسألني أخبار الولد، أبحث له عن عروس.

صار يعارضني، يقول:
- هذه موضة قديمة، سأبحث عنها بنفسي.
أسأله: هل أنت معجبٌ بواحدة معينة..؟! هل تحبها؟!، أعطني وصفها. أريد أن أفرح بك، أخطبها لك؟
يرد بثقة الشباب:
- المهم، أنها تعجبني أنا، وليس أنتِ.
صار يسألني عنكَ كثيراً، أنا خائفة عليه، يأتي إلى البيت متأخراً، أصبحتُ لا أقوى على مساءلته، أصبح رجلاً، ها هو قد غادر فراشه، هل من أحد يغادر بيته في مثل هذه الظروف، في مثل هذا الوقت من الليل؟!.
سخرت البارحة منه، سألني:
_ كم يبلغ وزن الدبابة؟!.
يسلبني طيفه النوم، يسألني أخبار التلة.
اعتلتها الدبابة، أفسد الجنود نوارها، منعت الأسلاك الشائكة وصول الماعز إلى عُشبها، خافت الرصاص، ينطلق بعشوائية، قتل صغارها، يرضع وليد الشاة لبن أمه، اخترقت الرصاصة ضرعها، سال دمها، امتزج اللبن بالدم، تحول لونه الأبيض إلى الأحمر، ظل راقداً تحت الضرع، حامَ صوته المخنوق الفضاء، مزقته الرصاصات، وصل نحيبه البحر، ذاب فيه.
أنظر التلة، تزدادُ غصتي، تُذكرني بالخُص، أقامه مع طالع الصيف الأول لزواجنا، سنقضى الصيف فيه، أخذني إليه، يستقبل بابه هواء الشمال، سيكون الصيف الأجمل في حياتك، نجلس على بابه، مازال بعض الظل ممتداً، يدخل هواء البحر صدري، ألمحهُ قادماً من (الماصية)، يحمل في يده بطيخة، فتشَ لبش الماصية، قال:

- هذه الوحيدة التي نضجت.
يشقحها، يذوقها، يقدم لي الشقحة الأولى، ينظر من حوله، لا يرى أحداً، أرهقهم، العمل، زرعوا المواصي بالقثاء والخضر، نضج الثمر، أخذتهم القيلولة، يهمس:
- إنها حلوة كما الشهد، (أول الثمار يُطوّل الأعمار).
جرف المستوطنون الزرع والثمر، شفطوا مياه مواصيه، امتصوا عذوبته، أحرقوا دفيئاتها، قتلوا أشتاتها، لم يبق من شجر الجوافة والتفاح سوى العظم.
ينسحبُ ظل الظهيرة، يدخلُ الخص، ندخلُ معه، تشتعلُ الظهيرة لهباً، يُغلقُ فمي، لا تقولي شيئاً، سأغلقُ بابه، يغلقه، يتفصدُ الخصُ عرقاً، استسلمُ، تفعلُ عذوبة البطيخ فعلها، ينغلق بطني على نبضٍ وروح. يسلبني طيفه النوم، يسألني أخبار البحر.
نتهادى على الشاطئ قبل الغروب بقليل، يحبُ لون البرتقال، يلون وسادة الشمس يمسكُ يدي، أخاف أن يرانا أحد يمسكها ثانية، يجرني إليه:
- أنت متزوج من لا يعجبه يفعل مثلنا، يشرب من الماء البحر تغمسنا برتقالة الشمس،
تذوب ملامحنا، يبلل ذيل الموج أقدامنا، يتسلقُ الموج ملابسي، تلتصقُ بجسدي، تحمر وجنتي، تُصبحُ بلون التفاح، جَرَدَ الجنود نوار التفاح، صار تفاح المواصي منافساً.
انظرُ عينيه، يشدني بريقهما، نحتمي بالرمل، يعلقُ بملابسنا، تصلُ أشرعة الفلك اللجة.
حُرمَ البحر النوم، يخترق الرصاص جوفه، تدكُ القذائف رأسه، تقتل أسماكه، تأكلها الجوارح، اشتهينا السمك، اشتاق البحر لأشرعة

الفلك، لرؤية التلة، غطتها الدبابة، عربات الجيب، العسكرية، صناديق الذخيرة، أسراب الجند، تهاجم الغربان المواصى، تنتهزُ الإقامة الجبرية على الفلاحين، الأوامر صارمة.

تنقر الغربان ما نضج من البطيخ، تفسده، تدوس بساطير الجنود أعناق النوار، تقتل الدوريات من يصل رمل الشاطئ، من يبلل الموج قدميه، من يطرح فيه شبكته، من يجمع زنابق الشاطئ.

توقف مطر الربيع، زادت زخات الرصاص، غادرني طيفه، أبحث عنه، أُناديه، أصرخُ فيه:

- أين ذهبت؟! أنا في حاجة إليك.

يصل الرصاص سقف البيت، أنتفض، أتفقد فراشه، مازال دافئاً، أُشاهده أمامي، تملأ ابتسامة الفجر وجهه، لا ادري كيف دخل البيت، يقبلُ يدي، ينام على صدري، يَعبقُ برائحة الطين والنوار، تصلُ شفتيه أرنبة أُذني، يهمس: يُقرئك أبى السلام، يوصيكِ بعروس لي

الدُّن

إلى حاجز التفاح

تُعلن دقات (بج بن) تمام الساعة الثالثة صباحاً، لم ينكشف وجه الصبح بعد، الخشة بجوار البيت، يخشخش مفتاحها، مربوط بسلسلة طويلة، يفتحها، يدخلها، يطرح عليه تحية الصباح، يدخل في قصته، يحفظها أهل الحارة عن ظهر قلب، يقصها عليه أجزاءً، يحكيها له بصوت مرتفع، يكرر الجزء الواحد أكثر من عشرة مرات، يقول له:

- ستسمع اليوم ما لم تسمعه من قبل، لا تغمض عينيك، ولا تدلِ أُذنيك، ولا تدعِ الانزعاج أو النعاس، كلنا لم نذق طعم النوم الليلة.

_لم أسمع هذا الجزء من قبل:

_لقد سقطت قبل وصولها عتبة البيت، فرضوا علينا منع التجوال، شح الماء، نسفت القنابل خطوط المياه، جلبته من إحدى البيارات القريبة، كانت الجرة على رأسها، مزق الرصاص صدرها، اختلط الدم بالماء الجرة، صارت عتبة باب الدار بحيرة، تجمد شلال شعرها، تلون ليل الشعر بلون الدم، تجمد، كدت أقتل أباها، لماذا يخرجها من البيت؟ لو طلب منى لذهبت بدلاً عنها، كُنا جارين، أراني نجوم الظهيرة قبل أن يوافق على خطبتي منها. همس في أذنه:

_ هل تكتم سراً؟

لقد قبلتها من شفتيها، أحضرت لي كوباً من الشاي، قالت لي:

_ اشرب وسيزول عنك كل التعب، ستكون مثل الحصان.
ارتشفت، كان الجو بارداً، أحسست بالدفء، بأنني عصفور حلّق في الفضاء، وصل السماء، لوّن الشجر، سكب الشهد في النهر، سال لعابي، كنت راقداً تهسهس الحمة عظمي، ساعدتنى، انعدلتُ في جلستي، أشارت نحوك، خافت أن ترانا، كنتَ تلتهم مخلاتك، خطفت شفتيها، التهب جسدي ناراً، لكنكَ رفعتُ رأسكَ، عضضت شفتي، قالت:
_ سيأتي الصيف قريباً، سنملأ الدنيا أولاداً. ابتسمت:
_ سأقتلك إذا زاغت عينك إلى إحداهن.
غادرتني، التفتت خلفها، تخيلتها تحمل في حضنها طفلاً.
لماذا تُغمض عينيك؟ !، هل انسجمت؟ !، هل جلبتُ لك الهموم؟! لك حكاية مثلى؟ !
_ لستَ كعادتك؛ لا تلويحة لذيل، ولا تحريكة لأذن.
أين حيويتك؟ !، رشاقتك؟ !
_كنتَ تقابلني (عنطزة)، أجدكَ واقفاً في انتظاري، أحس حركتك، بفرحك، تكاد تهدم الخشة قبل أن أفتح بابها، يبدو أنك تخاصمني، هل أغضبتك شتائمي البارحة؟! أرجوك لا تلمني، كان رغماً عنى، لمن أشكو همي؟
أتشك في حبي؟.
ألم أجلب لك حلوى النمورة؟ ألم نتقاسمها معاً؟، كم مرة سال لعابك على حصتي؟
كم مرة حذرتُك ألا تقترب منها؟.
لكنك تحب بطنك، كنت تنتهز فرصة التفاتتي، تنقض عليها كما المفترس، يتدخل القدر، أخطفها في اللحظة الأخيرة، أرى لعابكَ

يسيل كما (المزراب)، أًضعفُ أمام حبك، يهتف داخلي: (الله يخزيك يا شيطان.. نفسه فيها)، أتنازل لك عنها، ثم لا تكتفي بذلك، تدلى لسانك، تلحس ورقة الجريدة تملؤها ريالاه، تظهر صورها، ترى صور الرجال تصيبك الحساسية تقضم رؤوسهم، تكتفي بلحس رؤوس النسوة.

ظننتك غلباناً، لكنك داهية، اكتشفتك يوم السوق، كنت ستوقعنا في شر العباد، سترحلنا من البلد، انقضضت عليها كما (الوحمان)، كأنها من أعدائك، كان عليك تكتفي بالمغازلة، اعترف بأن الحب أعمى، لكن ليس لدرجة أن يمحو الناس من السوق.

ها أنت تدلي رأسك خجلاً، الآن عرفت سر غضبك وتكاسلك لقد تأخرنا، هيا انهض ولا تجعلني أفقد أعصابي.

_ ألا تكفينا حالة السوق؟! أصبح شحيح الخُضر، لم يَعُد بمقدور المزارعين الوصول إلى مزارعهم، منعتهم الحواجز العسكرية، سدت الطرق، عزلت المدن والقرى عن بعضها البعض. يتفحص وجهه، يفتح عينيه، يلح بريقًا مبتلاً يسأله:

_ مالك تنظر هكذا؟!

- أتريد أن تذكرني بالعمال؟!

أعرف أنه لا سوق بدونهم، هم حركة البلد واقتصادها، ولا أُريدك أن تتحدث عن طلبة المدارس أيضاً، كان الله في عونهم، نزعوا البارحة قطع أجسادهم عن أسفلت الشارع، كانوا يحملون حقائبهم، يقتربون من مدرستهم، جعلهم الخوف ينقطعون عنها، عادوا إليها، مزقت القذائف الدبابات أوصالهم.

- أسمعت بالخبر الأخير؟! أعرف أنك لم تسمع به، أنت من يوم السوق وحالتك النفسية غير مستقرة.

- لقد قصفوا مواقع الأمن الوطني وحرس الرئاسة، (يعنى الحكاية ما كله زفت).
- لم أسمع لك حتى اللحظة همهمة ولا حركة.
هل أنت مستنكف عن الكلام؟ !، مُعلن الإضراب..؟!
تعال لنتفاهم، هذا طرفي، وهات ما عندك، ها أنت لا تقدر على الحجة، لا تكن أكالاً نكاراً.
يتودد له:
أنسيت زجاجات (السفن أب)؟، التي كُنتُ أُبّردُ بها جوفك، ما أن أضعها بين شفتيك حتى تعضها بأسنانك، تقلب رأسك للخلف، تكرعها مرة واحدة، لا تترك لي فيها جرعة.
_هيا يكفيك دلعاً.
أرى وجهك أصفر، هل بقيت مسهداً؟!، سرح خيالك بها، تمنيت لو نامت معك الليل، من المؤكد أنك لعنت أبا القذائف وأبا الذين يصنعونها ألف مرة، لأنها بخرت صورتها من رأسكِ.
مثلى تماماً، جاءتني الليلة الفائتة، فَرحِتُ كثيراً، لكن مكبرات الصوت أفسدت فرحى، كانت تُنادى الناس أن يهبوا لنجدة إخوانهم عند حاجز التفاح، لقد تبخر طيفها، أشعلت سيجارة و المذياع، كادت ضحكتي أن تصل الجيران، أتعرف ماذا كان يغنى؟
(بارودي ع البارودي.. يا مشا لله.. وأنا بدي بارودي.. دخيل الله)، بقيت طوال اليل أُعفط السجائر.
_ أراك هزيلاً، هل أنت مصاب (بالإنفلونزا)، قاتلها الله، إنها تخرط الأرجل، أوصيك كثيراً بألا تنظر من فتحات الخشب، أنت تعرف هواء الشتاء، أعرف الشظايا هي التي أحدثتها.
لكن جسمك بارد، سأحضر لك شراب الليمون، له سحر عجيب،

هكذا قالت جدتي:
(ديتها كباية لمناضة، وطقة عقال).
سيخفف مع قرص من الأسبرين عنك الكثير من الألم، لقد ظهرت عندنا الكثير من الأمراض، بعد أن جرفوا معظم أشجار الحمضيات والزيتون، أتعرف أن زيت الزيتون ينصب في العظم مباشرة، وإلا كيف كان العجائز ينفعون زوجاتهم، ينجبون أطفالاً بعد السبعين من أعمارهم، لو كُنتُ أعلم بحالتك هذه، لحضرت لك تحت القصف، لو كلفني هذا حياتي.
آه، عرفت، أنتَ منقرز، تريدُ سيجارة، لقد أدمنت في الآونة الأخيرة التدخين، أنها شبه مفقودة، صاحب الحانوت على ناصية الشارع يبيعها بأكثر من ثمنها الأصلي، لكن لا يغلو عليكَ غال، تفضل أشعل لفافة وضعها بين شفتيك، أُشفط منها كما تشاء واعدل دماغك، سأكون قد جهزت لكَ كل أمتعة العمل.
هل أنت خائف؟! لقد أصبح جسدك مثلجاً، لماذا الخوف؟ !.
ألم تسمع صوت القنابل من قبل؟ !، طيلة عمرنا وهى تمر من فوق رؤوسنا، تسقط علينا تقتل من تشاء وتهدم ما تشاء.ستكون بعد سيجارتك على ما يرام، يتأمل وجهه، يتفقده:
_ أنت تزداد تعباً، سأجلس اليوم بجانبك، (وطز في الشغل وأهله، محدش بموت من الجوع، وكله على الله).
تُعلن ساعة صوت العرب تمام السادسة صباحاً، هذا موعد خروج الدُّن بحماره، ينقل عليه ما يتبقى من حمولة عربات الكارو، يحدثه، يسامره، يغضب منه، يشتمه، يعتذر له، نقل عليه الكثير من الإصابات، أزقة الحارة ضيقة، لا تستوعب سيارات الإسعاف، وديع، يداعب أطفال الحارة، يأنسون به، يحدثهم عن اليهود، كيف

استولوا على ديارهم، يحملهم على ظهر حماره، يلف بهم الحارة يوم العيد، ينصب لهم أرجوحة، يقول لحماره:

_ لا تكن مزعجاً، الناس نائمة، أنت حمار الدُّن.

سكت فجأة، خرج من الخشة، صرخ، تحول الصراخ إلى نحيب، يهرعوا إليه حفاة، سهدتهم مبكرات الصوت، القذائف، بات معظمهم في الأزقة، أحاطوه، نزعوا يديه عن وجهه، مخضب بالدم، مسحوه، طار إلى الخشة، دخلها شعاع الشمس دخلوا خلفه، أجهش بالبكاء، أشار إليه، كان ينزف دماً، بقرت القذائف بطنه، اكتشف ذاك منذ لحظة، كان يحكى له قصته، يستغرب أهل الحارة أمره، يجلس على ركبته، يحفر ركن الخشة يُخرج من بطنها شيئاً أسود، كان بطول النبوت، يفك عنه خرقاً صارت بالية، يكلمه:

_ إلى متى؟ !، الآن جاء وقتك.

انحنى على حماره، قبله، غادره، يجمع زلط الحارة، يناديها، لم نسمع بهذا الاسم من قبل، تهمهم عجوز:

_ إنها خطيبته، قتلها جنود الاحتلال بعد حرب (76) بشهرين.

_ ينطلق، ينادى شباب الحارة، أطفالها، ينتشر صوته، يملأ الأزقة، الحارات المجاورة، إلى حاجز التفاح.

قوز النص

حيرتني رسالته، أشرد منها، تطاردني، تؤرقني، توقفت عندها، جعلتني كلماتها عاجزاً كتبها لطفلته لم تدخل المدرسة بعد، تزيدني أمي همّا، تخاطبني في وهن:

_ الزواج يا ولدى نصف الدين، أفضل بألف مرة من القراءة والكتابة، لم يبق من العمر أكثر مما مضى منه، إنني أحلم، بمداعبة أطفالك، صار شبح الموت ينام معي، كم حلم أبوك أن يرى يوم الإفراج عنكَ، يرى أولادك، يضمهم في حضنه، لكنه مات كمداً.

قالوا لنا:

_ من يقترب من السلك سيكون (بم.. دُف.. تش)، كان ذلك بعد اعتقالك بيومين.

تناهى صوتها، ذاب، لف حوش الدار بي:

_ لماذا قطعتِ على نفسي وعداً؟ !

مالي وأدب المعلقات، ما أهمية درجة الدكتوراه بعد خمس عشرة عاماً من الاعتقال؟! هل اجبرتني عيونهم؟ !

يومها أوقفوني في وسطهم، أحسست أنني عريساً، أنهم المحررون وأنا المعتقل، دمعوا فرحاً، تعلقت قلوبهم بي، تفاوتت أحكامهم، سنوات اعتقالهم، كتبوا الرسائل إلى الأهل القصص، الخواطر، والقصائد، أكلهم الشوق، حرقهم الحنين، توحدوا:

_ لابد من المنطق، الواقع، الحرية.

لم أذق ساعتها حرارة اعتقالي، لم أحس كيف مضت السنوات تمنيت لو أخذتهم معي، بقيت معهم، حملت عشقهم، التهمته كبسولات من ورق، انتفخ بطني بها، شعرت بغثيان الحمل بالمخاض قالوا:

_ لم يفتكَ الوقت، ما زلت شاباً، ذكياً، شاعراً، جامعياً، واصل دراستك، اجعلها رسالتك.

أشرد إلى الغرفة، أحتمي بشباكها يطل على (قوز النص)، أفتحه؟ أخرج عيوني، هنا كان بينه، نسفوه، صار بيتنا في المقدمة، يكبرني بأعوام، عشت فجر اعتقاله، سحبوا أهله والأسرة، غادرت به السيارات العسكرية، سمع نسف بيته، تداعى بيتا، بيوت المعسكر، هشمت قطع القرميد المتطاير، رؤوس الناس، أنظر (قوز النص)، أبحث في أنشاج الرمل، أبحث فيه عن خندقي، عن الراعيات عن شجره، عن شجرتي ينفرش بلون الغروب، أعرفه منذ عمري، بتدرج في ارتفاعه، تكشف قمته المدينة، المخيم، أحواش البيوت، تدحرجت من قمته حتى قاعه، صدعته والأطفال كثيراً، لهثنا، حفرنا عند قاعه، خرج الماء عذباً، ارتوينا، نودعه غروب الشمس، يستقبلنا شروقها، أترفع من صف إلى صف، أكبر، أراجع، دروسي، تصله الراعيات مع الزوال، يصعدن قمته، يجلسن في حلقات، كن ملثمات، يرددن التراويد:

يا حبيّبي يا سويلم يا وردة في قوارة
يا بخت إللي يشيلك شال الهنا كلـه
يا خويفتي يا سويلم لينسرق نــواره
بالروح والقلب وبالله لدفع الشر عن داره

يحلبن الماعز، يفتتن الفطائر، يلمحنني، يلوحن، ألبي، يسرقني بريق العيون، أسمع صوت أمي، تهب النسائم، يصلي متقطعاً، إياك ونسيان الامتحان، أهرب إلى خندقي، أحفره، بطول قامتي، يتوسط انحدار، تخفيه الأشجار عن العيون، أغمض جفوني، لا أستطيع الرد عليها، أتظاهر بالنوم، أضحك، أقضم رغيف الخبز،

تحشوه لي بمخروط الفلفل الأحمر، أشعر بأنني أعتلي قرميد البيت، تداعت أخشابه، اختل توازنه، تنظر إليه:

_غداً يكبر الولد، نعمره.

يرد عليها:

_ وهل سنبقى هنا إلى الأبد، غداً سنرجع إلى قريتنا، سنعمر كما يحلو لنا.

تكره أمي المطر، ينزل من القرميد مزاريباً، تقي الفراش أواني المطبخ، تطفح، تندلق عليه، تترقب انقشاع الغيم، ظهور الشمس، تنشره، نفترشه مبتلاً، يقودونني، أنقط ماءً، يشد لساني، يدميه:

- إياكَ أن تتظاهر بشرود الذهن، أو تدعي الخبول، كلهم، كانوا في البداية مثلك، اعترف جميعيهم، لا توهمني بأنه لا علم لك بالعملية التخريبية، هيا تكلم اعترف.

_ لا أعترف بالتخريب، ولم أقم به في حياتي، أنكره على الآخرين.

_ إذا ماذا تسمي هذه العمليات؟ !

_ كل العمليات الجراحية منها.. من معالجة الأخطار.

_ ماذا تقصد بالأخطار؟

_ أخطار الجراثيم والفيروسات والآفات.

لعن ديني، بصق في وجهي، نعت أمي بالعاهرة، أدمي فمي ألبس رأسي كيساً، كدت أتقيئ، تركني مغتاظاً:

_ كلكم فلاسفة.

لطمني الشباك، هبت النسمة قوية، تذكرت رسالة، سهر الليلة كله، دخن سجائر المعتقلين، سألوه:

- ماذا تكتب..؟!

- أكتب رسالة إليها.

كيف ستصل؟!

نظر نحوي، ابتسم، تحسست بطني، قال لي:

_ ستكون هذه الكبسولة الأخيرة التي تبلعها.

أخرجت الرسالة، دخلت عليّ الغرفة، أشعلت في صمت ذبالة السراج، فتحتها، عادني وجهه، عاد شاحباً، منعوا زيارته، التففنا حوله، بلعنا الصمت، كسره:

_ لم يهمني تمزيق خاصرتي، ولا انسكاب الدم في فمي، ما عذبني فجر اعتقالي أن سؤالاً عند الباب ضرب رأسي: ماذا ستجيب زوجي وليدها بعد نزوله حينما يسأل عن أبيه؟

_ أقرأ: إلى ابنتي الحبيبة.. أهدي العنوان (قوز النص أرض الميعاد) يتمزق جوف الليل تنطلق قذائف الهاون، تدك مواقع (قوز النص) العسكرية، تزرع الرعب في المكان والزمان، يغطي الفجر على الذبالة، أجابت الزوجة عن السؤال وليدها كانت الطفلة ألمحها تركض صوبه، يعتلي القمة، يحضنها يضمها، تردد الراعيات التراويد، يذوبان في الصبح، أضع نقطة، أفتح سطراً جديداً.

فوق الهشيم

صار لنا أكثر من ساعتين، هطل العرق لزجاً، هبط عمود الهواء من الشمس إلى جوف السيارة ساخناً، ازداد تموز حرارة، وصل طابور السيارات إلى مد البصر، التوى بالتواء الشارع، صار حلزونياً، كنا سنعبر الحاجز، أوقفنا الجندي على رأس الطابور، لم يظهر منه شيئاً، ثبت قطعة الخشب المستديرة، طُبع عليها دائرة حمراء، كاد السائق أن يتشنج، اهتزت السيارة، التصقت كوابحها بالأسفلت، أدخل القطعة الحمراء جوف كمينه، جرفت الجرافات الشجر، وصل التجريف حد البصر، سقط الثمر، مزقت سكاكينها فجه، عصرت، ما نضج منه، سالت عصارته على الطين، روته، نبت العشب، جفّ، ترتعيه الحمير، انكشفت عورة الأسفلت، تململت في مكانها، فتحت زجاج السيارة، أخرجت يدها، تلمست النسمة، أرعبها صوت السائق:

- هل فقدتِ عقلكِ؟! كيف تُخرجين يدكِ؟! كُنتِ ستفقدينها، أو يفتح أهلنا بيوت العزاء لنا.

اصفرَ وجهها، نظرت له:

- أنا متعبة.

كانت بدينة، تجلس في المقعد الأمامي، التفتت بصعوبة، ردت عليها:

_ صبراً يا أختي، الأمر ليس بيده، ولا بأيدينا، كما تُشاهدين، الكل مثلنا.

نظرت المرأة من النافذة، كأنها تبحث عن شيء ما، كانت تجلس في المقعد الخلفي، عصرت بطنها، تزحزحت في مكانها، مالت بخاصرتها، ضغطت فخذيها، رمت برأسها على المقعد استاء السائق:

أرجوكم يا أخوان، كفاكم حركة، نحن نقف في مقدمة الطابور، إنه

يتابع حركتنا من داخل كمينه.

تخرج فوهة بندقيته، ينطلق الرصاص، تيرطع الحمير، يتمزق قلب العشب، يترامى كومات في فضاء الأرض المحيطة، يعلق في أرجلها، تقفُ، ترتعُ، ترتجفُ المرأة، تتفقد بطنها، تقترب الحمير من الكمين، أطلقت الفوهة زخة أخرى، تُبرطع، تتطاير سنانير العشب، الغبار، يخترق الزجاج، ينغمس بالعرق، تهفه، يدخل فمها، تَسعلُ، تمسكُ بجيدها، تكاد تختنق، تبكي، تصرخ، تطلب من المرأة أن تأتيها، تحد البدانة من حركتها، تمسك بيد الباب، صرخ السائق:

- في عرضك، ألم ترين كيف يطارد الرصاص الحمير؟

تمتطي المرأة ظهر الكرسي، تدلى رأسها، صدرها، وقفت بطيخة أردافها في الوسط، التصقت بسقف السيارة، ضغطت اسفنجية بطنها، تحسست منديل رأسها، انكشف أكثر من نصف شعرها، صرخت من جديد:

- الحقيني يا أختي، يكاد بطني أن ينفجر.

حاول أن يثني رأس الكرسي، أن يكسره، تزحزح نصف البطيخة، عضت شفتيها، صرخت:

- سيسقط رأسه، أريده حيّاً.

نفث دخان سيجارته، أخرج سحابة دخانها من النافذة، دكَ الكرسي بعصبية، تدلت البطيخة، اندلقت على الكرسي، جلستُ القرفصاء، برطعت الحمير، حمل الهواء دوامات الغبار، السنانير، وصلت كمين الحاجز، تمكن أحد الحمير من أُنثاه، أخرج خشبته المستديرة، انطلق الّرصاص، ترك الحمار أنثاه، احتمى بالسيارة، أطلق رفستين في الهواء، حف رأسه بالنافذة، أكحل العينين، بحلق، كأنه يتفقد قلب السيارة، صرخت:

- إنه الحمل الأول، صار لي أكثر من سبع سنوات متأخرة، أوقفتني أمه على شفير الطلاق.
دكَ مقود السيارة، طار الحمار صوب الفضاء، لحقت به البقية، سحبت أرجلها الكومات ترامت في الأرجاء، نفث آخر سحابة من سيجارته، قالت لها:
- لا تخافي، اتركي نفسك لي سيخرج سليماً معافى إن شاء الله.
صارت بين فخذيها، قالت لها جملاً كثيرة، صرخت.
قال الطبيب:
- ستلدين خلال يوم أو يومين، اياكِ الخوف والاضطراب، وكل شيء سيكون على ما يرام.
دفع للطبيب كل شقاه، حُرم كباقي العمال من العمل، قال لي: المهم أن تنجبي لي طفلاً.
استلفتُ من جارتي أجرة السيارة قذف عقب السيجارة، صوبّها نحو الكومات، تركتها الحمير خلفها، استنشقها الهشيم، لمعت سنانيره، صعد دخانها، انطلق الرصاص، تكور في مقعده، قالت لها:
- انسِ كل ما يحدث خارج السيارة، إللي إلو عيشه ما بطوله شدة.
برطعت الحمير، اتصلت الكومات ببعضها، اشتعلت، امتدت سحابات الدخان، سحبت معها ألسنة النيران، زحفت شرقاً، اهتدت فتحة الكمين، دخلته، ارتفعت زامرات السيارات، برطعت بساطير الحاجز، التهمتها النيران، أدار محرك السيارة، فك كابحها، تحركت حلزونية الطابور، صرخت، زغردت المرأة البدينة، رنت نغمات بكائه:
_مبارك عليكِ، ولد مثل القمر.

العش

غادر الغيم، تتفتق لوزات الشقائق، زق السنبل، انتفخ، نضج، سُنت المناجل، زقزقا، شقا الفضاء، دارا، نزلا، وقفا، تشبثا بنتوء الصخر، سقطت الشمس، برقت الحناء، زينت الصدر، أطراف الجناحين، تلفتا، دخلا جوف صخر الجدار، قطعه جدي من صخر البحر، عجن الطين بالقش، أقام الجدار، توسط حقل الحنطة، يقع على حدود السوافي، استوطنتها الدبابات، طوقتها بالأسلاك الشائكة، تدلت بداخلها جدائل القبعات السوداء، ستر عورة الدار، طلاه باللون الأبيض، صار ملاذاً للطير، تصله رفوف أبو الحناء في نفس الموعد، تجمع قش الحنطة، تُدخله شقوق الفواصل، يرتج مائة مرة في اليوم، تضع بيضها، تفقس، تزق فراخها بلبن الحنة البكر، ترفرف الفراخ، تغادر الأعشاش، تصل السلك الشائك، يصرخ بصافرات الإنذار، تهرع الدبابات، الجرافات، الجنود، الرشاشات:

- هذه الأرض ليست أرضك، هذه للحكومة، ونحن الحكومة، لا حق لك فيها.

يحمل أوراق ثبوتية الأرض، صورة أبيه:

- هذه مزورة.

كان الموعد حصاداً، قذفهم بالمنجل، بالدقران، ركلوه، انطلقت صليات الرصاص، تفحم قمح الحقل، تحول رماداً، جروه من شيبته، كانت بجواره، صرخت، وصلت حدود المستوطنة الجدار، انهار.

تسللت لجناحه، دخلت تحته، نقرته، نفشت حناء صدره، مس الريش

الريش، اختلطت الحناء بالحناء، اهتز الذيل، الجناح، انفل الريش من بعضه، توسطت الشمس السماء، طار، حمل القش تناولته، تلفتت، سمعت الهدير، أدخلته العش، طفح بالقش، يحرسه، يُدخل رأسه، يُطل عليها، لا تخرج، تزداد الشمس سطوعاً، يختلط الذهب بلون السنبل، يعبق الحقل بالشقائق، تتدلق بينه، تتهامس فواصل الصخر، ينبض قلب القش، تفرح جدتي، تقترب مني، قالت بصوت يشبه همس المنجل للقصل:

- لا تزرعي الحقل إلا حنطة دعي الطير يأكل منها، لا تنقري على الصفيح كي لا يخاف، دعيه يأكل والحيوان بأمان، أعيدي ترميم الجدار، كي لا يتوه أبو الحناء، أنه يأتينا مع كل حصاد، كان يتمزق ألماً، حسرة، ظلت جروحه تنزف كأنهم بثوا فيها السم، يحرثون الأرض التي احتلوها عنوة، ينظر إليهم، تتدلى جدائلهم، يقول لي:

إنهم يحرثون جلدي، يزرعون تحته الملح، قالها وفارق الحياة.

- وهل كان جدي يحب أبو الحناء؟ !

_ كان ينتظره من العام إلى العام، يجلب معه بشائر النضوج، مع وصوله يبدأ بسن المناجل.

_ ها هو يعود يا جدتي، هل سيفرح جدي؟؟

_ نعم، وأنا أيضاً انتهيت من ترميم الجدار، وسأطليه باللون الأبيض.

تصلبت يدها، تحركت شمالاً وجنوباً، غرزت سبابتها في الأرض، رسمت خطاً مستقيماً، وصلت الخط بنصف دائرة، صار الرسم أشبه بالمنقلة، أشارت إليها:

- وهذه أيضاً لا حق لهم فيها.

- متى سأكبر جدتي؟؟

تسن المنجل بسرعة، برزت عروق ساعدها، توزعت تحت جلدها جداولاً، ابتسمت، نظرت الفضاء، طافت الحقل، وصلت فراخ أبو الحناء السلك، لوحت بمنجلها، توهجت الحناء في صدور الفراخ، ضمني صدرها، كنت بجوار حوض الماء أزرع شتل الورد الأبيض.

بلون البرتقال

لم تغفُ عين الشمس، رمشها فوق خد الموج، تلمع أجنحة الطيور المهاجرة في عينها يفصل الحاجز العسكري القلب عن القلب، وصلها، مازالت في موضعها، سنفَرها الريح، غسلها المطر، تقف عند المفترق، دارت الأقاصيصُ حولها، تشبه سدرة المنتهى، التقى عندها آدم بحواء، صُنعت المحاريث من فروعها، سقى بئرها القوافل، الجيوش، ذبحت القرابينُ في ظلها، تمر الزفة بها، تغتسل النسوة بقشورها، يحملن، يختلط مذاق ثمرها بمذاق اللوز بالجوز، بين الخوخ والمشمش بين التفاح والأجاص، يتوه لونه في لون الأصيل، يشفي الأبرص والعليل، يفقد مذاقه إذا نُقل، يبهت لونه، يفقد عصارته، لم يفلح أي من غرس فسلها، لم يسند الفلاحون ورقها لطلح، يشبه سعف النخل، إبر الصنوبر، بين ورق الزيتون والبرتقال، بين العناب والسدر والجميز والعنب، بين التين والرمان، لا تقترب منها الحشرات لا تطأها الخفافيش، لا يحط عليها البوم، ترتخي أغصانها من تحت أعشاش الغربان، تقع، تحطمها قطع الصوان، تنتشر أسفلها، يذوبها الطين الأحمر يهرس عظمها يطحن لحمها يمتصها دود الأرض يحوم النحل فضاءها لا ينقطع ثمرها يصحن أهل القرية الجاف من ورقها، يصنعون منه الشراب، يلعقونه سفوفاً، له مذاق الشهد، يشفط الربو من الصدور، يفتح الشرايين، ينظم ضربات القلب، يصلب الظهر، يحمي من الكساح، يُجمع ختيارية القرية، أنه يصون اللسان من الكذب، من يتمنى تحتها مع الفجر أمنية تتحقق، قال الطاعنون في السن نقلاً عن أجدادهم: أن شعراء الربابة غنوها، أن كتاب الأثر ذكرها، وأن

أمير المؤمنين عمر قد تسلم تحتها مفاتيح بيت المقدس، وأن كتاب فتوح الشام الأول ذكر أن القائد خالد قد حل بجيشه قبل اليرموك في ظلها وأن جنده أكلوا من ثمرها، وأن الثمرة كانت تكفي لكتيبة، وأنهم شربوا وإبلهم من ماء البئر، وأن عقر الإبل مشكوك فيه، وأن سلالتها ترجع لإبل رحلة الشتاء والصيف، وأنها تحمل جيناتها، وأكدوا أنهم شاهدوا ضباط الترك يأتونها، يقيمون صلاة الجمعة تحتها، وأنهم كانوا يحفرون بعد الصلاة حُفراً، دفنوا فيها أشياء غير معروفة.

قال الأحدث سناً: أن ضباط الفرنسوية كانوا يأتونها مع صباح كل يوم أحد، يلفون حولها، ينحنون أمام جذعها في طقوس تشبه طقوس الصلاة.

سيّجها ضباط الإنجليز بالأسلاك الشائكة، منعوا أهل القرية وصولها، استوطن يهود الخزر أطراف جذورها، تمتد بعيداً بعيدا، أقام جند (الهاجانا) على مقربة منها حاجزاً عسكرياً أطلقوا الرصاص على من يقترب منها، جف ماء بئرها، تحرشف ورقه، صار له أشواكاً، تاه ذات مرة أحد صبية القرية، كان وحيداً لأبويه، أرسلوا من يبحث عنه، اضطربت القرية وجدوه بعد أسبوع نائماً تحت شجرة زيتون، كادوا لا يعرفونه، ازداد وزنه ثلاثة أضعاف ارتفعت قامته ثلاثة أضعاف، سأله مختار القرية، حقق معه:

- أين كنت؟

رد بخشوع:

_ هناك.

_أصاب الجمع الوجوم.

_كيف؟

_الطريق سهل.
_وما قالوه عن الخوف؟
_هراء.
_سألوه:
- أحوال الثمر؟
احمر وجهه، تفصد عرقه، تشنجت يداه، أنزل جبهته، غضب:
- لا يوجد.
- طعم الورق؟
- مراً.
- لون الطين؟
- مثل رماد الفرن.
_الأعواد؟
- جافة.
_ الطير؟
-تكتظ بأعشاش الغربان.
_ ليلها؟
_ تحجب الخفافيش ضوء القمر.
- صِفها.
أطرق سمعه للريح، صوب عيناه لزرقة السماء، نظر أخاديد الوجوه، شاخت، ابتسم رضيع على كتف أمه، انتصب، تهلل وجهه، حلقت عيناه في كل الاتجاهات، أشار هنا وهناك، جذبته الابتسامة، غذته بتعويذة القرية الوحيدة، ورثها الآباء عن الأجداد، الأبناء عن الآباء، رددها قلبه: اللهم احمِ ما باركت في قريتنا من شجر وثمر، وصنها من عين طامع أو بائع، أو متخاذل.

صرخ المختار في وجهه:
_صفها.
تلقفته عين الرضيع، أمدته بينابيع الأزمان، صار كمن يتذوق شيئاً حلواً:
تشبه الزيتون تحت المطر، زرقة ماء البحر، الليل فيه النجوم والقمر، سوسن السهل، كما الشقائق، ريحان البيوت، الحرير من الخيوط، النبع في الجبل، لها خشوع المحارب، رقة الزنابق والغض من السنابل.
نعت الصبي بالدروشة، نصح بإخفائه عن الأنظار، وأنه صار منذ اللحظة مطاردا، وأنه مطلوب لأكثر من ملك من ملوك الجان.
بقي للشمس قامة، حام جند الحاجز في كل الاتجاهات، تفقدوا كل شبر حولها، أطلقوا الرصاص على لا شيء، ظلت الغربان في الأعشاش، تاه بين كتل الصخر، تحطب في مكانه لم ينقطع حديث أبيه في رأسه، يُعيد على مسامعه حديث جده، يجسد له خرائط الحديث، يرسم له الزوايا، التقى الصبي الدرويش سراً، كان كهلاً وقوراً، اعترف الدرويش بأنه لم يَته، وأنه عمد طريق الشجرة، وأنه اشتاق لرؤيتها، ولمذاق ثمرها، وأنه اكتشف في طريقه ما يدهش العقل، قال له:
_ إن لمساربها صخوراً تشع بريقاً، تكشف الخطوة وتُخفي من يمشي فيها، وأنها تفرز في الليل لبناً، من يشرب منه بقدر رضعة يتضاعف وزنه وقامته ثلاثة أضعاف.
عاد الجنود لموقعهم، اهتدى دربها، جلس تحتها، انخفضت قامة الشمس، تلاشت خلف الجبل، وصلت البحر، صارت بلون البرتقال، استكانت حركة الجند، وقف كل واحد في اتجاه، تشقق رماد الطين

تحته، كان الدرويش قد وصف له مكانها، نهض، تحسس الوصف، غطست الشمس، سحبها، دار الشريط في رأسه:
صلى ضباط الترك تحتها، حفروا، دفنوا.
تحسسها، تآكلت فوهتها، اهترأ زنادها، قرأ تعويذة القرية، مسحها بكم قميصه، ورثه عن أخيه الأكبر، وأخيه عن أبيه، قالت له أمه وهو يرتديه:
_ أعتقد أن عمر هذا القميص قد زاد عن المئة عام.
التصق بجذعها، حك جسده بقشرها، أصابته نشوة، نبش الطين، اتسع الشق، مد يده، غاصت في بطنه، سحبت ثلاث صرر، فكها، لون المغيب ورديا، اندهش، سبع حبات من ثمر الشجرة العتيق في كل صرة، لم يره من قبل، لم يذقه، عرفه بالوصف، زادت حبات الصرة الثالثة بحبتين، تيبست، تحجرت، حاول كسرها، عصت على الصوان، لحسها، رطبت جوفه، غَبّرها الطين، مسحها بتلباب قميصه، سال لعابه، عبأها بطن الفوهة، صوبها، كشف بريق الصخر العتمة، يخفي من فيه، تذكر عمرَ قميصه، أخوته، زاد عدد الجند، انطلقت الحبات، دخلت أسراب الطيور المهاجرة حدود القرية، سمع أهلها ثلاث وعشرون صرخة، اهتز المختار، قال الدرويش:
_ الآن بزغت براعم الشجرة.

النص الخالص..

لأنشودة السوافي

اعتلى المنصة، قرأ:
الصبح باكراً، الوقت برداً، سمعوا صوت عصفور (الكركز) لم ينتظروا شروق الشمس، شدهم الصوت، لون السوافي انعكس عليها لون الصبح، تشبه جبال السكر، امتزجت حباته بقطر الندى، برقت، تجدل خيوط الشروق قرونها، تبل عروها، يطبع بللها بصمات الأقدام، يعلق بها، يخلع من يدخل حدودها نعليه، صاروا حفاة، مازالت حقائب المدرسة على ظهورهم، تبخرت حرارة الأقدام، الندى، أنزلوا الحقائب، أودعوها القرون، انحدرت شلالات الرمل غرباً، تهادت كطرحة عروس، حطت عند جذوع الأشجار، اشتعلت بالنوار الأصفر، ودعت رشة المطّرة الأخيرة، هبطها عصفور(الكركز)، دخل القرون، دحل بين الجذوع نقر تلابيب الطرحة، فاحت رائحة النوار، نسي طلاب الصف الأول جرس المدرسة، طاروا خلفه، دفعتهم النسمات غرباً، ظنوا أنفسهم (كركزاً)، صدمهم السلك الشائك، يصيد حتى النملة، تعلوه أبراج العسكر، تتوزع في الأرجاء، تقتل من يقترب منه، طار الكركز فوقها، حط عند أطراف المنحدر هناك تنبت الآن براعم (الحماصيص)، ينتقيها، نما بعد رشة السماء الأخيرة، ملح البرعم أسطوري، من أكله يحتل المرتبة الأولى في المدرسة، هكذا قالت لهم الأمهات حاصرت الأسلاك الشائكة السوافي، احتلها العسكر،

لم يكونوا آنذاك قد حملتهم الأرحام، لم يأكلوا (الحماصيص) بعد، ألقوا حقائب المدرسة، تطايروا، تقافزوا، غشاهم عبق النوار، هزوا السلك، شدوه، خلعوه، دخلوه، جذبهم مغناطيس البرعم، لحقوا بالعصفور، أكلوا منه حتى الثمالة، أزهر الرمل نواراً أبيض، نادتهم الحقائب:

_ حان موعد الدرس، امتلأت الطرق والمسارب، راقبت التلسكوبات الأرض، تحرك النوار، لبوا نداء الحقائب، كانوا بحجم السمسم، رصدتهم العدسات، كبّرتهم ألف ألف ضعف، طاولوا سعف النخيل، صاروا فوق الأبراج ارتعد السلك، متى وصلوا..؟ كيف دخلوا؟

طيّرت الأبراج غربانها، أفاعيها، زرعت الرمل بارود، سُماً، وصلوا الحقائب، رفع النخل عين الشمس، أدوا صلاة الدرس، اغتسلوا بقطر الندى، انفجر البارود، اشتعل الفضاء، احترقت الأرض، ما زالت عصارة (الحماصيص) تتوغل الشرايين، تنسكب في العظم، نمت بين ضلوعهم أجنحة بيضاء، طارت الحقائب، لحقتها الأجنحة، خطفوا الحقائب، جلسوا على قرون السوافي قطعا، ما زالت تجدلها تفقدوا الكراسات، حلّوا أسئلة الواجب، رسموا آخر خرائط السوافي، دحلّها الكركز منذ قليل، دق الجرس، دخلوا المدرسة، انتشروا في ساحتها أرواحاً، سلموا الخرائط، جلسوا على مقعد الدرس، حسدهم الأولاد:

– لماذا لم نكن معهم.

ظهرت النتائج، احتل جميعهم المرتبة الأولى.

أنهى الصبي، ابن الصف الثالث، قراءة النص أمام طلاب المدرسة.

قمر الليلة

اضطرب المعسكر، اختفى صوت الأولاد، حلقت طائرات (الأباتشي) فوقه، ارتجت بيوته، كادت تقع على ساكنيها لم يكمل تمشيطة شعره، خافت، اقتحمت عليه البيت، شاهدته يضع هاتفه الخلوي على أذنه، سمعته:

- أرجوك أن تمنحني هذه الليلة أيضاً، لقد قطعت لهم وعداً، سأنهي جميع الترتيبات، ستحدد اليوم، أنت تعرف الأزمة الأخيرة.

اقتربت الطائرات من الحارة، حاولت أن تسحبه:

- لن أتركك وحيداً، أنسيت أنك زوجي، حبيبي، إذا متنا نموت سوياً.

_ على ما يبدو أن الأمر ليس سهلاً.

_ وهل أنت الجندي الوحيد في الموقع؟ !

_ لا، ولكن لكل منا موقعه.

قبلته، أسبل عينيه، مرت الدبابات وهي تقف ليلاً أمام الموقع (31)، يتقدم كل المواقع، كدته أكثر مره، نام فيه بعد الليلة الأولى من عودته، غرس أمام الخيمة فسيلة نخل، استبدل ملابسه بسرعة، انتعل بسطاره، هجمَ يحمل (جربنديته)، مسكت يده مازال يمسك بالمشط، قذفه ببسطاره، التصقت به، تعلقت بالحقيبة، حاول أن يخلصها، سيطر صوت أبيه على حواسه:

_ إذا أردت الوطن، احملها، اذهب إلى موقع التدريب، هكذا قالوا لي:

_ لن يرجع أحد إلا إذا التحق بالقوات العائدة. سألتُه:

- والجامعة؟ وأنتم؟

- عليك أن تختار، أما نحن سننتظر نهاية العام الدراسي، حتى يتسلم أخوتك شهاداتهم.

تركني ومضى، كاد عكازه يخونه، تذكرت يوم دخل علينا محمولاً، بُترت ساقه اليسرى، ضرب الطيران مواقعهم، يأتينا كل ستة أشهر مرة، حكى لنا كثيراً، عن جنوب لبنان، يحكي ويبكي، يكشر، ويبتسم، يشطح رأسي بعيداً، ماذا ترك هناك؟ هل ترك زوجاً؟ أولاداً؟ محبوبة؟ ثروة؟

لكنه يحل اللغز سريعاً:

_ كنا نشاهد من موقعنا وبالعين المجردة جبال الجليل الأعلى، كانت شجرة التين تغطي موقعنا، يتدلى تينها عسلاً، وحينما تبدأ أوراقها مع أواخر تشرين تتساقط، نأكل(قطيناً)، أذكر أن هناك في قريتنا، لنا كرم من التين (الشحامي).

حملتها، عدت، أوصاني الادخار: ها أنت ترى أحوالنا، قبلوني طويلاً، أحسست أنهم يشيعونني لحكم بالإعدام، لحقتني حتى باب الشقة لم تستطيع نزول السلم الطابق السادس ليس بالهين وقبلتني الأخيرة، همست:

إذا صادفت بنت الحلال تزوجتها لم تعد صغيراً.

_ كيف؟ وبدونك؟ !

_ لم يعد مهماً، أنت الآن جنديٌ، والجندي يجب أن يكون مستعداً لكل الجبهات والمجابهات.

وصلت، ظلوا في مصر، سكنها أبي وأمي بعد حرب (76)، وُزعنا على المواقع، نصبنا الخيمة، استأجرت بيتاً، غرفة بمرافقها أكلت الريح حجارته، تظلل شجرة التين حوشه، مازال ثمرها فجاً، شاهدها، تسكن قبالته، أحبها أحبته، طلبتها، وافقت، صارعا كثيراً:

أين أبوه؟ أمه؟ أخوته؟ أقاربه؟ واجهتهم، جابهتهم:
_ افترضوا أن ما ذكرتم قد ذبحوا في مخيم (شاتيلا). عقدنا القران، ساءت الأحوال، شفطت السياسة الاقتصاد، لم أتمكن من فرش الشقة، رفضت أمها أن أسكنا المخيم:
- ألا يكفي نحن؟!
_اضطر.
ارتعشت، غطت (الأباتشي) الفضاء، دارت دائرياً، دخل رعدها المغيب، هرولت الخطوات، امتلأت الأزقة، دبت الأرجاء علت أصواتها بالمناداة، بالصراخ، لا تعرف أين تتجه، أين تذهب، انقطع صوت الأذان، أضاء القمر سماء المخيم، سقط الصاروخ الأول، تزلزلت الأرض، دوى الانفجار، انخلع باب الغرفة، طار، التصقنا، طارا معه، قطع غصناً، خلا من الثمر، صارا تحتها، ما زلنا، سقط القمر، اخترق ضوؤه أوراق التين، صار قطعاً أصابت وجهها، تورد، اهتزا تجاذبا، عادت الخطوات كما الريح، هرعت صوب الحدث، علت الأصوات، خاب الصاروخ، ضل هدفه.
انفجر الثاني، تطاير قرميد الغرفة، تصدت الأغصان له، توهه ضوء القمر، شوش (راداراته)، سال لعابهما، امتزج ببعضه، ناداهم صوتها:
-هل أنتما بخير؟ انسحبت شفتاهما، وصلهما خيط فضي:
_ نعم يا أمي. رن الخلوي:
أنت في إجازة هذه الليلة أيضاً. نظرا السماء، كان القمر الليلة كامل الاستدارة.

(مليطة)
السادس عشر

امتلأت الحارة بصوته: (الجميز البلمي... السلة الأولى... الحقوا البشائر.. من تريد أن تحمل عليها (بالبلمي)، من تريد أن تنجب صبياً، تأكل من بشائر (البطن الأول).

تخرج إحداهن، تنتظر وصوله، أعاقه الصبية، لاقوه جماعات، قطعوا ألعابهم، هرعوا صوبه، هطلت وجوههم عرقاً، ما زالت العطلة الصيفية بكراً، اكتظت بهم الأزقة، وقفوا كما السد أمامه، منعوه المسير، مدوا أيدهم، مد يده، غطي الثمر بورق الشجر، أزاحه، أعطاهم:

_ (كل واحد تورة) إنه أعذب من الشهد... كلّوه بسرعة، لا يحتمل أشعة الشمس، سيتبدل لون وجوهكم، سيصير أحمر، لن يصيبكم فقر الدم بعد اليوم ستقاومون ما زرعته القنابل من سموم، لن تتبلغم صدوركم، لن تصابوا بالعقم هذه بشائر البطن الأول، من أكلت منه لن يتأخر حَملها، ستلد ولداً ذكراً).

يخرج لسانه بين أسنانه، يضغط عليه: نحن نريد ذكوراً.

_ أتريد أن أمهاتنا يلدن ذكوراً، وتعطينا كل واحد أربع حبات فقط.

_ أسكت أنت يا أدغم، هل تظن أنك الوحيد في المعسكر؟ إذا حصلت عليها فغني في عبك.

يسكت قليلاً، يقترب منه، يمازحه:

_ إن وجهك أيها الأدغم يشبه رغيف (الصاج) المحروق.

يميل عليه، يقبله، يعطيه حبتين أخريين، يبتسم الصبي، يحمل سلته،

يمضي يصلها، كانت تقف بالباب، ابتسمت، سألنه:

_ هل لحق ثمر الجميز أن ينضج؟ ما أسرع أن تمضي السنة ! كله من أعمارنا. تفرد طرف منديلاً، تقول له معاتبة:

_ لقد قلت لي في العام الفائت أنكِ ستحملين، وستنجبين ذكراً، لكنني بقيت على حالي، وبقيت حماتي ترندح قولها: (إللي مبتحبل من ليلة دخلّتها فلن تحبل أبداً).

_ لا بد وأنكِ أكلتِ من ثمر آخر السنة، عليك بالبشائر دائماً.

- من أين أتيتَ به؟

كمن أصابته غصة، أخرج كلماته بصعوبة:

- لقد مررت بكل الشجر، من جنوبه إلى شماله، حتى جمعت هذه السلة، لقد خلعوا الكثير منه، فرقوا الشجر عن بعضه، كان يشكل سياجاً، يفصل الرمل عن الطين، تمنعه من الزحف على الأرض الزراعية، يخلعونه من جذوره، يقولون أنهم يقدسون هذه الشجرة، إنهم يخدعون أنفسهم، لقد سألني الطيار ذات مرة، لم تتركه يكمل حديثه حتى سألته:

_ ماذا أصابك يا مليطة؟ عما تتحدث؟

_عن الطيار، سائق الطيارة البيضاء.

_ وكيف فهمت حديثه؟ هل كان يتحدث العربية؟

- لا، بل الإنجليزية، ويلكن ببعض كلمات اللغة العربية.

ـــ إننا لم نر طائرة بيضاء منذ الحرب، كل الطائرات التي نراها سوداء.

_ أعرف أنكِ ستفهمينني خطأً، لقد كان هذا قبل الحرب بكثير، لربما لم تكن أمك قد ولدتكِ.

تبتسم، كمن تأخذه على قدر عقله، وماذا سألك؟!

يتحسس وجهه، برزت عظامه، أوردته، شراييه، زفر: آنذاك لم تمر على تهجيرنا من بلادنا سوى خمسة أعوام، كنت أعتلي (طراطيف) إحدى شجرات الجميز في موعد إثمارها الأول، لا تستغربي، إنها تثمر سبع مرات في العام، أنتم جيل لا يعرف الكثير عنها، وإذ بطائرة بيضاء تمر بي، كانوا يقولون أن رأيت طيارة بيضاء لا تخاف، فلن تلقِ قنابلاً مثل الطائرة السوداء، إنها طائرة البوليس الدولي، الذي يقف بيننا وبينهم، خوفاً من اختراق الهدنة.
يلتفت حوله، كمن يخاف أن يراه أحداً أو يسمعه، يواصل بهمس:
_(والله منا عارف شو معنى الهدنة، ولا البوليس الدولي)، كنت أخلع قميصي وألفه حول وسطي، حينما رأيت الطائرة البيضاء تمرق من فوقي، وبدون تفكير سحبت القميص ولوحت لها، كنت أنوي دعوة الطيار لكي يأكل من ثمر البطن الأول، وقتها قلت في نفسي: مسكين هذا الطيار، تراه لم يذق الطعام منذ سفره، الطريق طويلة، والجوع كافر، اسألي من كان به خبيرا، ساعتها تذكرت أمي، كانت تقول دائماً:
- يا بني: (اعزم واكرم وأكل العيش نصيب).
مرقتني الطائرة، لم أدر كيف لمح الطيار قميصي، على ما يبدو أن الطيار كان يريد الالتفاف يساراً، فنظر في المرآة الخلفية، وإذ به يعود لي ملوحاً بعد أن هدأت الطائرة من سرعتها، صار على مقربة مني، أطل من النافذة، صرخ بي
_ ماذا تريد يا (مليطة)؟!، ألا يكفي أنك جاعل من نفسك حامي حمى الجميز، تريد أيضاً أن توقف سيرنا وتقطع طريقنا، ألا تدري أنك تسبب لنا المشاكل.
أخذتني الدهشة، كدت اسقط على الأرض، كيف عرفني؟! ومن قال

له أنني أقطع على نفسي وعداً منذ أن توفى والدي بأن أكون حامياً للجميز؟! لم أسكت له، صرخت فيه:

_ هل أنت من قريتنا؟! من سكان حارتنا؟! أو أحد أقربائنا؟! من الذين كان أبي يحدثني عنهم، الذين ضاعوا مع الهجرة، ولم نَعُد نسمع أخبارهم؟! وكيف أُسبب لكم المشاكل؟!

كان أشقر البشرة، سكت قليلاً، تصنع الابتسامة، قلت في نفسي: يخزيك يا شيطان، لربما شاهدني وأنا أبيع ثمر الجميز في المعسكر، أو سمع الصبية وهم ينادونني، كمدت غيظي، قطفت له بعض الحبات ناولته، أشاح بيده رافضاً، تراجع قائلاً:

_ أ من أجل هذا لوحت لنا؟!

_ نعم.

كادت الطائرة أن تخطف يدي، دار حولي دورتين، سألني:

_ هل أنت من المهاجرين؟

_ أ تقصد من الذين هُجروا من ديارهم؟! نعم أنا منهم.

_ وهل تحب أن تعود إلى قريتك؟

_كما أُحب الجميز.

_ من أجل هذا تبث الأقمار الاصطناعية صورتك بشكل مستمر ودائم.

- وين تلك الأقمار التي تدعي؟! أنا لم أعرف ولم أرى إلا قمر السماء الذي يضئ الليل.

_ إنها من فوقكم ومن تحتكم وعلى جوانبكم، والآن نودعك.

_ لماذا لم تأكلوا ثمر الجميز؟ إنه لذيذ المذاق.

_ نخاف أن نحبه.

_ وما الضرر؟ !

_ نصبح مطاردين للأقمار الاصطناعية مثلكم.
حاولت معه أن يأكل أكثر من مرة، كنت صبياً حينما سمعت جدي يقول لأبي:
_ الضيف يا ولدي ضيف الرحمن، امسك فيه بيدك وأسنانك.
لم يشكرني، قال وهو يغلق باب الطائرة:
_ ما دامت تأكل جميزاً، سيأتيك من يحرق الجميز ويشوى لحمك.
وقتها ارتاب قلبي، شاهدت الطائرة البيضاء غراباً.
- قهقهت، وماذا حدث بعد ذلك يا مليطة؟!
_هل تتهكمين علىّ أيتها التالفة، اشكري ربك كثيراً لأنك وجدتِ من يتزوجكِ هل تريدين أن تحملي وتنجبين ولداً؟! إنها ستكون بنتاً، هذا إن حملتِ، وستكون بنتاً بشعة، مثل سوداء الجعران.
يملأ كفيه بثمر الجميز، يديره في المنديل، يغادرها قائلاً:
- لا أريد ثمنه، إن بشائر البطن الأول ستكون مجاناً.
تعلقت بيده، أمسكت قميصه:
- سأصنع لك كوباً من الشاي، وستكمل لي القصة اقسم لك أنني لم أقصد أن أهزأ منك.
تناول حبة من الجميز (البلمي)، هدأ انفعاله:
_ هيا الحقيني بالشاي، واجعليه ثقيلاً بلون قطين الجميز، كي يعدل دماغي. لم تغب طويلاً، صبت له كوباً، وجدته سارحاً، حدق في الأفق البعيد، يمتد حتى البحر، كان يحدث نفسه:
كم بودي أن أزرع هذه المسافة جميزاً، كي يأكل منه كل الناس، كي تحبل كل النسوة، كي يلدن صبياناً، كي يحجب ظله رؤية الطائرات السوداء والبيضاء، كي لا ترى الأقمار الاصطناعية الناس، كي تجلس الراعيات تحته، كي يتغزل المحبين بالحبيبات أصيلاً.

يسأل نفسه: ترى هل تقدر يا سيد (مليطة) على ذلك؟!
يشقلب يديه في الهواء، يجيب نفسه: نعم، لكن حينما يأكل كل الصبية منه، علىّ أن أُوزع كل البطن الأول عليهم، سأقول لهم: إلحقوا الأفق قبل أن يُحجب الأصيل عنكم، قبل أن يتغير اتجاه ريح المطر، كي لا يصيب الجفاف أرضكم، قبل أن يغضب الله منكم، ويلحق بكم العقم.
_ لقد درب الهذيان عقل (مليطة) صار يحاكي نفسه.
سمع هسيسها، أحس بوجودها، احتدت نبرته:
_ هل أحضرت الشاي؟
_ تفضل.
_ أين اللفافة؟ !
- أحضرت لك كل ما تبقى من كيس (الهيشة).
_ وهل تبقى من وراء زوجك شيئاً، تراه عفط كل الكيس.
_ ولماذا؟ !
- لأنك تجلسين أمامه.
_ هل أنا كريهة لهذه الدرجة؟
_ ليس كذلك فحسب، أيضاً لم تنجبي له طفلاً.
_ ليس بيدي، الرجل هو الذي يزرع النطفة في المرأة.
- أنت مغلقة من جميع الاتجاهات تحتاً وفوقاً، عليكِ أن تأكلي ما استطعت من البطن الأول، وأن تقطعي على نفسكِ عهداً بأن تغرسي غرسة من الجميز (البلمي).
يغمق اسمرار وجهها، تبلع ريقها، تتنهد، تسأله بشغف:
_ قل لي بربك يا (مليطة) هل حقيقة أن البطن الأول من الجميز (البلمي) يجعل المرأة تحبل وتلد ولداً ذكراً؟!

_ ها أنتِ عدتِ تهزئين بي.
_اقسم لا.
لف أكثر من لفافة، ارتشف الشاي، عفط السجائر، نظر للأفق، ابتسم، حمل حفنة من الرمل، قرّبها من وجهها: اللهم اجعلني مثل هذا التراب إن كنت كذاباً، يا عزيزتي:
أعلمي أن الجميز يُزرع غرساً وليس بذراً، فإذا زرعتِ غرسة وأورقت، حينها يغرس زوجكِ رحمك بنطفة تكون ذكراً، لقد كنت لا أصدق مثلك، حتى تزوجت، ليلتها أخذني أبي إلى زاوية معتمة، أمسكني فأساً أشار للمكان، حفرته، أعطاني الغرسة، غرستها، فتح يدي، ناولني شيئاً، كان طرياً، خفت منه، قال:
_ هذه (التورة) ستمنحك القوة والقدرة، تناولها قبل أن تدخل بزوجك، وستحبل الليلة.
قلت له:
_ أنا قوي يا أبي، لا تخف، مثل عود الجميز.
قال:
_ أنت لا تعرف النسوة، هن يحتجن أكثر.
دخلت الغرفة، فتحت يدي، وجدته قد ناولني أربع حبات من الجميز (البلمي)، كنتُ سألقيها من النافذة، أمسكت يدي، قالت:
_ أفعل كما أوصاك والدك، ذُهلت: من أفضى لكِ بهذا؟
_ أمي.
بسملت، تناولت الحبات، أحسست أني أعتلي جبلاً، أو أقلب فيلاً، أنجبت خمسة عشرة ولداً ذكراً في عشرة سنوات، أما (مليطة) السادس عشر فقد غادر بطن أمه الليلة الفائتة.
ضحكت، أدارت وجهها، تمتمت: ليتني نفذت وصية أمي فتحت

منديلها، أكلت بنهم، علت الشمس، اشتم الصبية رائحة الجميز (البلمي)، عادوا إليه، أحاطوا بالسلة، أوصاهم بغرسه، أكلوا، ابتسموا، هزوا رؤوسهم، اتجهوا مسرعين صوب شجر الجميز، كان يمتد شمالاً حتى الأفق.

مليطة: لقب شعبي

الفهرس

المجموعات القصصية الكاملة
للكاتب والأديب الفلسطيني عثمان خالد أبو جحجوح

المجموعة الأولى ((ويحكي البحر حكاية عشق))

1- أبو سمرة
2- الحوت
3- هجرة النورس الخريفية
4- الفنـــار
5- الشندر
6- السردين المّر
7- البحر سنة إداري
8- آخر حقائق غرق البحار سعيد
9- البحر الممغنط
10- ويحكي البحر حكاية عشق

المجموعة القصصية الثانية ((مهرجان في سوق الباذنجان))

1- زغاريد العودة
2- بياع اللوز
3- مهرجان في سوق الباذنجان
4- للفرح عذابات أخرى
5- الامتحـــان
6- البراعم التين ترانيم خاصة
7- كعك العيد
8- الوطن يودع أبناءه مكرهاً
9- بكُوك
10- ندى المآذن

المجموعة القصصية الثالثة ((الغـــــروب المشـــرق))

1- لا بد من المحاولة الثالثة

2- شهادة الصف السادس

3- الحـــافلـــة 53

4- العشق لا يعترف. .

5- رفعت الجلسة

6- الـغروب المـشرق

7- الجميـزة

8- ســـمات

9- أرجوحة

10- بين القلب والروح

11- الـزيـارة الأخـيرة

12- عروس البحر

المجموعة القصصية الرابعة ((النـوار والـدبابة))

1- النوار و الدبابة

2- الـــدُّن إلى حاجز التفاح

3- قـوز النـص

4- فوق الهشيم

5- الـعـــش

6- بلـون الـبرتقال

7- النص الخالص.. لأنشودة السوافي

8- قـمـر الـلـيـلة

9- (مليطة) السادس عشر

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان